الفرائس

رواية

السيد الخميسي

إصدارات نوارس
٢٩

مدير التحرير التنفيذي
السيد السمري

مستشارا التحرير
قاسم مسعد عليوة
أحمد رضوان زحام

الإهداء

إلى شجرة الحب والكرامة

أمي

السيد الخميسي

- ١ -

تتكور المدينة مثل صدفة عجيبة ينالها الماء من جميع أقطارهـــا ، ولكل ماء طبيعته وشخصيته ومذاقه ولونه. في الشمال يهـــيج البحــر فيطؤها في توحش موجة بعد موجة مرغياً ومزبداً ودافقاً وله شهيق وزفير وخوار. فإذا هَمَدَ وفترَ انحسر مخلفاً وراءه بركاً فضـــية تختـــلجُ فيهـــا مخلوقاتٌ بحرية مختنقة تتراقصُ رقصة الموت فوق ســـطح المـــاء الغـــائض فتلقفهـــــا منـــــاقيرُ مشـــــرعة لنـــــوارسَ محومـــــة . وأشعة أرجوانية تعكسها الأرض المبللة ، وظل طويل لســـاقي نـــورس عجوز، وقف منكمشاً على صدرِ قاربٍ مهجور. والقـــرصُ الأحمـــرُ الملتهب ، يغرقُ حثيثاً في الأزرق الهامد. جدلية للحياة والموت وحضور العناصر ، الماء ، النار ،الهواء.

في الشرق ،المياه قاتمة عميقة وغادرة وأقـــلُ رعونـــة وطيشـــاً تمخُرها بين الفينة والفينة سفينة عملاقة تدفعُ الماءَ على صـــدرها مخلفـــة وراءها خطين واهنين، واحدٌ يتجهُ ليضرب حجـــرَ ديليســـبس العتيـــد ويتلاشى الآخر وقبل أن يصل إلى الضفة الأخرى البعيدة في بورفؤاد. و قاب قوسين أو أدنى دلافينُ تقهقهُ غافلة وسط الموت الحديدي الهـــادر ،

يخبطها رفاصُ السفينة العملاقة فتموتُ بلا صوت، أو يجرحُهــا فتظــلُ تولولُ إلى أن تموت •

من الغرب و الجنــوب تتقــوسُ المدينــة في رحــم الــبحيرة الرءومو القنالُ الداخلي حبلٌ سُرّى يمتدُ إلى خاصرتها بماء لــيس كالمــاء ،مزيج من ماء القناة القاتم الغادر ومن ماء الــبحيرة الأبــيض الطــاهر الرقراق ، ومن زيوت اللنشات القديمة التي تربضُ على الجانبين•

مدينة طفلة ، تشبهني وأشبهُها ، تتمددُ في جوانحي ، و أسيحُ في أنحائها ، أفتحُ أبوابها المائة دفعة واحدة فتبوحُ لي بأسرارها سراً وراء سر، أحوّم على أطرافها ، كائناً بحرياً تكتمل به فيها دائرة الموت والحياة•

طيوّر من كافة الأشكال و الألوان و الأحجام لا تخطئ مواسمَها وأسمــاكٌ شهية حية قريبة التناول و المثول ، و هواء مصفى لا يشــبهه أي هــواء .. مدينة عجيبة ليس منها من لم تستبحْه دما و عظاما وروحا و لحما ، و ليس منها من لم يأخذها من أقطارها جميعا ويتحد بها .. مكان عبقري يمتزج فيه التاريخ بالجغرافيا بالناس بالحرب بالحب و بالحياة وبالموت •

خاضت المدينة كلّ الحروب ،الإنجليــز ،الفرنســين ،الألمــان واليهودلم يبق بيت إلا وفيه شظية هنا أوهناك إلا المغــربي هــذا المقــامُ فيأقصى غرب المدينة بعد الجميل، القبةُ الخضراء، هذا الغريبُ الغريــق الذي تنسج حوله الأساطير ، هذا القادم من جوف الماء ،دفنه الصيادون في الأرض الجافة بعيداً عن الماء ، في اليوم التالي وجدوه مبللا في مكانه، دفنوه وأقاموا عليه المقام ، لم يغرقْ أحد في حمَى المغربي هــذا الحــارس المجهول ، يأتي النساء إلى المغربي ، يترلنَ بأطفاهن إلى الماء في حماه وبعيدا عن أعين الفضوليين •رسوت في القاع ،أغمضتُ عيني وتوقفت تمامــاً عن التنفس ،بدأ الضوء ينسحب رويداً رويداً ، لم أشعرْ بأي ألم ، فقــط الصمت والظلام الذي يزداد كثافة كلما أوغلت في النفق الأسود •

لم أكن خائفاً إنها السكينة الشاملة ، حينما أخرجني عمَي مــن الماء وضعني في حجر جدتي ، كنت أرتجف من البرد ، بحثــوا عــني في الخلاء وعلى أطراف البحيرة وعند الكوبري المكسور ، لم يبحثوا عــني في البحر قال عمي وجدته يتخبط بين أقداميقلت سمعتُ صــوت أبي فصحوت، أخذني من يدي ورأيت الشمس تترل إلى الماء قالت جدتي إنه المغربي بركاتك يا مغربي .

لفتني أمي في البشكير الكبير ضمتني إلى صدرها و هي تبكي وأنا أرتجفُ ، قالت لا تخبر أحداً . تشعلُ الشمعَ بنفسها توزعه ، في أركان الضريح وعلى رأس المقام المكسوّ بالقماش الأخضر الزاهي و المكتوب عليه آياتٌ من القرآن الكريم ، لا تنسى أن تفعل ذلك في كل مرة ، وعندما تصبحُ الشمسُ في المنتصف تقريباً بين كبد السماء و خط الماء الغربي ، يأتي الرجالُ ، يأكلونَ و يلعبونَ الضامةَ على الرمل الأبيض الناعم ، تكونُ ملابسُ النساء قد جَفتْ ، لم تعد ملتصقةً بأبدانهن الممتلئة ، لا يبقى من أثر البحر سوى بياض الملح فوق وجوههن الملتهبة و على أذرعهن البضّة الساخنة مثل رغيف فينو خرج تواً من الفرن .

لا مشاكلَ لي مع الماء ،أقف بجوار كمونة في الخلاء أنظرُ إلى خط الماء الدافق ، نتنافسُ أينا أكبرُ طرفاً وأغزرُ ماءً و أقوى دفقاً و أعمقُ حفرا في الرمال ، ليت الأمرَ كان محصوراً على الماء ، أعودُ من المغربي دائماً ببطن تتمزق .

لم أفعلها أبدا في الخلاء ولا مرةً واحدة في حياتي قال كمونة إنه يتخففُ من حمْله في ماء البحر أجرى وراءهُ و هو يضحكُ و يروغ أقذفهُ بالرمال و الأصداف وأنا أصيحُ ، هذا القذرُ يلوثُ الماءَ الطاهر ، تضحكُ النساءُ من غضبي و شدة انفعالي ، تنظرُ أمي إليّ فاهمةً و متعاطفة.

يقول خالي كنا إذا انطبقت السماء على الأرض وهاج البحرُ و ارتفع الموج و حُجبت المدينة ، نأوي إليه حتى تنقضي النوة •

في حصة الرسم أخرج نبيل الطيب الحلقة المعدنية ذات الأرقام و الحروف الإنجليزية ، وضعها فوق راحته في زهو و قال عندما تأتى إلى بيتنا سترى الرأس ، رأس جميل قمتُ بتحنيطه ، كل صيادي الطيور حتى البارعين منهم يحلمون بهذه الحلقة المعدنية النادرة ، كي تصطاد طائر الواق لابد أن يكون لديك صبر أيوب

و دهاء ثعلب ، لا يكفى براعة التنشين ، يحلقُ عالياً في السماء ، جماعات مهاجرة ؛ الدليل في المقدمة ينفرغُ وراءه الخطان الخافقان ، في تواضع مصطنع يقول نبيل الطيب إنها مسألة حظ ، هذا الماكر يعلم أنه لا دخل للحظ في الأمر •

وضعت خطتي ، خرجتُ للجميل فجراً، قبل أول ضوء كنت مختبئاً بين أنقاض الكوبري المكسور ، خوضتُ في الماء الضحل لمسافة طويلة ، موّهتُ موقعي جيدا، بقيت تحت الريح حتى لا يشمني الطائرُ فيجفل ، قبعت ساكناً،عيني في السماء جهة البحر أنتظر

طائري المستحيل ، أفقتُ و طيورُ الحلم أمامي، فوق الأحجـــار البارزة في الماء الضحل و على قوائم الكوبري المهدمة، في شموخ تقطـــعُ خط السماء .

شلتني المفاجأةُ لثوان ، استعدتُ رباطة جأشي واخترتُ طائري، بسرعةٍ أجريتُ حساباتي، إنه الأقربُ و الأنسبُ، الصدرُ في مـــواجهتي أخذتهُ علامة ثم ارتفعتُ تدريجيا إلى الرأس.، طيرٌ قويٌ إصابةُ الرأس فقط هي التي تسقطه في مكانه . القرصُ الأحمرُ الملتهبُ يكادُ يختفي في الأزرق الذي صار معتماً و داكناً، كتمتُ أنفاسي و شددتُ عزمي و أطلقـــتُ ، جَفلت الطيور مولولة في الفضاء تنثرُ الماء كأنهُ المطر ، خَفَـــتَ هـــديرُها تدريجياً قبل أن تنتظمَ خلفَ قائدها في اتجاه الجنوب ، بيني و بين طائري هذه المسافةُ الوعرة الموحشةُ ، لا بد أن أصل قبل أي وحش برى آخر ، في المنطقة ذئابٌ و ثعابين ، في النهار الأمرُ مختلفٌ و لكنه الليلُ و الظلام الزاحف ،خوّضتُ في الماء الذي ارتفع فجأة ،أقوم و أقع بين الصـــخور التي غمرها المياه، عيني على طائري، قلبي يخفق بشدة، يقفز أمامي شـــوقا إلى احتضانه . . أقبضُ حلمي جسدا كبيراً ساخناً ومختلجاً، أخرجـــتُ مديتي الكبيرة الحادة أرحته و انتبهت ، كتـــل المـــاء الأســـود تتجمـــع مدمدمة، اقتربتْ السحبُ من رأسي أكادُ أمسكها بيدي، سحب سوداء كثيفة تدلق الماء كفوهات القرب ، البحر على مرمى بصـــري حـــوائط

عالية تهوى متفجرة على الصخور ، شظايا الماء تشخب كالعويل تسحبني للهوة الفاغرة، الزبدُ يفور و الهواء الصامتُ يحتشد ُإنها العاصفة ، النـوة الكبرى و الليلُ الأسودُ و طائري الخرافي ولا شئ غير الماءِ المطبـق مـن كل اتجاه ، و القبة الخضراء تلوح ثم تختفي مثل فنارة واجفة والصـوت الذي يشبه صوت َأبي ،الماء الأسود يرغى و يرتفع، سحبني مثل جـذع شجرة مجتث، لفتني الموجة العملاقة في جوفها المعتم ، احتضنت طـائري وعلمت أنها النهاية، رفعتني الموجـة العملاقـة إلى قمتـها ثم هـوت بي متدحرجا أمام عتبة المقام ، زحفت نحو الباب الخشبي الأبيض، فتحْتـه وارتميت، عبرتُ حاجز الزمان والمكان ، العبقُ الطاهرُ والسكينة، ضـوءُ الشموع الآمنُ و الدفءُ الحنون . في الصباح كان البحرُ طفلاً وادعـا ًيتمسحُ في عتبة الباب الواهن، والرملُ الأبيضُ المبتلُ تلمـعُ فيـه هـذه الكائناتُ البحريةُ المختلجةُ ، والنوارسُ تحوّمُ في أسراب زاعقة ، والخيوط ُالذهبيةُ تترلقُ على الماء الذي عاد أزرقاً وديعا .

كان من الممكن أن أكون صياداً للسمك من هؤلاء الذين يَجرّون الحبالَ و الغزلَ بين البحر والشاطئ ، يعودون آخر النهار بما قسم الله ، لا يمكن أن أكون من هؤلاء المعلمين بكروشهم المنتفخة وأصابعهم المليئة بالخواتم الذهبية و رزم النقود ، يحملونها في أيديهم مثل ربطة الخس المنفوش، ينتظرون الغزلَ لحظة خروجه من الماء ،خلفهم عرباتٌ خشبيةٌ تجرها الحميرُ تقفُ غير بعيد تنتظرُ الإشارة ، يزايدون على السمك ، يعصرون الصيادَ الكبيرَ صاحبَ المركب والغزل بين أنيابهم المفترسة ، يسرقون عرق الناس، تنتهي الصفقة دائما وعيونُهم الجشعة يتقافز فيها الفرحُ القاسي وعيونُ العجوز دائما حزينةٌ منكسرة، هكذا قانون اللعبة ، قانونُ الظلم في أي مكان وزمان، من يعرقْ في الجانب الفقير ومن معه النقود مرتاحٌ يمتصُ دمَ الناس وعرقهم لا ،لا يمكن أن أكون واحداً من هؤلاء اللصوص. يفرحُ الصيادُ لحظة إفراغ الغزل من حُمُولته المترجرجة ، يصلي على النبي ، يعطى من حضر من الأطفال، فالله كريم والرزق رزق الله ، يعرف أن ملكيته ستنتهي حالاً فيمارسُ حقه الاستثنائي تحت عيون التجار المتلمظة .إذا بدأتِ المزايدة لا تقتربُ يدُه من كومة السمك.

البحيرة عالمٌ مختلف ٌو معقد ٌ، أماكنُ محددة ،جزرٌ ومراحات و غاب ٌ وحوَش ، أصحابها لا يعرفون البر ولا يخضعون لقانونـه ،فلـهم قانونُهم الخاص ، الموتُ هو الحارس ُالوحيدُ لهذه المساحات الواسعة وتلك الحدودِ التي لا يراها إلا أصحابُها ، سكان المراحات أقربُ إلى البدائية، فهم في وسط البحيرة منعزلون عن الأرض . جزءٌ من الطبيعة القاهرة ، وأنا الذي لا أعترفُ بحدود، لي كـلُ الأرض ولي كـلُ الماء وللناس مثلُ ما لي ، حينما تصطدمُ قدمي "بالجوبيا "أبتعد عن مواضعها، لم أفكرْ ولا مرة ًواحدة ًأن أفرغها في سبت الصيد ، لم يمنعني قـانونُهم الصارمُ الذي ظل مجهولا لي دهراً، يمنعني قانونُ أبي المخفور في أعماقي، خذ حقك ولا تعتدِ .

هؤلاء البشرُ العراة ُ، نادراً ما يصادفهم بفلايكهم الصغيرة، يدخلون بين الغاب ، يجمعون الأسماك ويعسّون الجوَب ، ألفوا رؤيته في عرينهم المحرم ، ينظرون إليه كما ينظرون إلى حيوان برى، لم أكن أعلمُ أنني تحت مراقبتهم الدقيقة حتى اطمأنوا ، مع الوقت لم يعودوا يثيرون انتباهي وهم يخبُون في الماء بسيقانهم السمراء القوية تتدلى بينها خراطيمُهم التي تتخبط بين أفخاذهم، لم يتكلموا معي أبدا، يمرون بجواري كما يمرون بصخرة ناتئة في الماء ، يتحدثون عبر فلايكهم الممتدة على مرمى البصر ، مجالهم براح ، لغتهم خبطات ٌو صيحاتٌ وإشارات ٌ،

عرفت فيما بعد أن معهم نساءهم وبناتهم ، لم تقع عيني على واحدة منهن أبدا ، لم أكن أعلم أيضا أن هذه الرؤية التي لم أسعَ لها عقابها الموت ، الموت، القانون الذي يحكم المكان • وكما يظهرون فجأة من بين الغاب يختفون ، يظهرون فقط وقت الغَسَّ صباحاً، مبكراً قبل أول ضوء ومساءً ، مبكراً قبل آخر ضوء ، يبدون كأشباح تتحرك في غبشة الليل الواهن ، مرةً وحيدةً اقترب واحدٌ منهم في مثل سني ، يحمل حنشاناً ضخماً يتلوى بين يديه القويتين المدربتين ، وضعه بصعوبة في سبت الصيد، قال خذه يدفئك في هذا البرد القارص •

لم أعد إلى المترل بغير هذا الثعبان الكبير، كان الماء يومها شديد البرودة وصافياً كالمرآة ، كنت أرى القاع الخالي من السمك ، يومها نظر أبي في عيني، قلت له الحكاية، ربّت على كتفي وقد اطمأن ، هذا الحنشان الضخم له قوة الحصان وهو في الماء ،لا تصطاده غابة صغيرة أو كبيرة ، يومها طبخته أمي مدفوناً في الأرز البني لا يزال طعمه الدسم عالقا في فمي، أتذكره دائما في أيام البرد الشديد•

يترك الصيادون فلايكهم على شط البحيرة ، يربطونها في أوتاد كبيرة مغروسة في الطين ، إلا "أبو يوسف" ، يحمل قاربه الضخم بين ذراعيه كما يحمل الطفل الصغير، يضعه على عارضة ذات عجلتين كبيرتين ، يدفعه أمامه مثل عربة المدفع و عندما يصل إلى بيته في الحرية يفرد الغزل بين عودين سميكين من البامبو ، يرتق ما تمزق ثم يتركه يجف في شمس الشتاء الحنون، يقوم يقلب الفلوكة على وجهها ويدخل إلى حديقة البيت ، يحضر الخشب وعلبة القار وعلبة البوية ، يرمم ما يحتاج إلى ترميم ، كانت شمس الحرية في ذلك الزمان عفية طازجة تملأ المكان بالدفء و النور ، و كانت الشوارع واسعة و الناس قليلة.

بعد أن قتل اليهود ولده مصطفى في ستة وخمسين في سيناء ناداه الناس بأبي يوسف حتى لا يقلبوا عليه المواجع ، قال بعض من كانوا مع مصطفى في الأسر قال اليهودي : لا تنظر إلى هكذا أبعد عينيك عنى ثم أفرغ مدفعه في صدره وظل يصرخ في جنون.

أعطى الله أبا يوسف بسطة في الجسم ورثها ابناه يوسف و حسن ، العينان النفاذتان و الصدر العريض وهذه النقطة الغائرة في منتصف الذقن مثل نقطة كيرك دوجلاس تماما وذراعان من الفولاذ ، نجلس بجواره، نرتاح من لعب الكرة ،أنا و كمونة و حسن، يقول ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟ أقول له في كل مرة : أريد أن أسافر مثل يوسف و أركب البحر الكبير و ألف العالم .يضحك و يضمني إلى صدره في سعادة، و في كل مرة أيضا يقول حسن أريد أن أصبح جنديا في حرس الحدود، يظهرون على شاطئ البحر بعد الغروب فقط، يمنعون الناس عن البحر بالليل، بالزي الكاكي النظيف و البندقية على الكتف، يذرعون الشاطئ جيئة وذهاباً ، منظرهم يأخذ الألباب و القلوب و الشمس تعكس ظلهم الممتد على الرمل المبلول حتى ليبدوَ الواحدُ منهم في طول العون ، أما كمونة فيقول أريد أن أصبح غنياً ولا يزيد ، يضحك أبو يوسف و يقول : يا خوفي منك و عليك يا كمونة .

يأتي بلا ميعاد، زيارته مرتبطة بصدفة عبور الباخرة التي يعمل عليها للقناة ، أحيانا كل شهر أو شهرين و أحيانا يمر العام دون أن نراه، يعرفه عمال الرباط ، يربطون سفينته في الغاطس لتنتظر دورها في عبور القناة ، يأتون به معهم في "البلوط "إلى بورسعيد، يبقى ساعات و أحيانا أياما يكون فيها ملء السمع و البصر بجسده الرشيق ووجهه الحليق و شعره البني اللامع و ملابسه الأنيقة، في الصيف القمصان الخفيفة الفاخرة بألوانها الفاتحة، في الشتاء البلوفر الصوف الأسود أو البني أو الأحمر الفاقع و الجاكيت الجلد الثمين، لا يلبس أحد في بورسعيد مثل يوسف الغيطاني ، يجلس عن يمين أبيه و بجواره نجلس أنا و كمونة يحكي لنا عن الدنيا الواسعة التي يجوبها شمالا و جنوبا، عن الموانى هونج كونج دلهي سنغافورة جنوه نيويورك و طوكيو، و عن الناس المختلفين و عاداتهم، يرسم دائرة في الهواء بكفيه و يقول نحن نقطة صغيرة في هذا الكون الكبير ، لا يتكلم عن النساء أمام أبيه الذي يقول له دائما إياك و الحرام يا بنى "النسوان و الخمرة "، ليس لك في الغربة إلا ذراعك و ربنا فلا تغضبه ، يضحك يوسف ضحكة صافية مجلجلة و يقول لأبيه مشاكسا الدنيا تتطور يا أبا يوسف سأحضر لك موتورا لقاربك في

زيارتي القادمة، يقول أبو يوسف وهو يتصنع الامتعاض أنـــا لا أحتــــاج موتورا ، الموتور لأمثالكم أيها الكسالى .

في الصباح يلعب الكرة مع الصغار و في العصر يلعب "اللجم "مع الكبار يقول هذه اللعبة أمريكية اسمها "البيسبول "و يحبها الأمريكان بشده و لم يصدقوني عندما أخبرتهم أننا نلعبها في بورســـعيد، في المســـاء يرقص في "الضمّة " رقصا لا مثيل له يضربون به المثل ، يقولـــون فـــلان يرقص ولا يوسف الغيطاني .

يحضر معه في كل مرة علب الفاكهة التي نعرفها والتي لا نعرفها ،الأناناس والخوخ والكريز و الكمثرى وكذلك أنابيب الكافيار ، يحضر أيضا علب اللحم الخاص بالكلاب يعطيها للأسكى، يقول الناس الأسكى يأكل طعام كلبه، عضه مرة فخرج يجرى بعرجته والكلب معلق في قدمه السليمة، يحكى لنا عن البحار الكبيرة يقول بحرنا بالنسبة لها بحيرة صغيرة والمحيط شئ مهول لا أول له ولا آخر عندما يهيج تكون أمواجه كالجبال ،يحكى عن بلاد حرها شديد مثل جهنم وبلاد كلها تلج ، فوق الشـــجر وعلى أسطح البيوت وعلى الإسفلت ، لو شافها (دنجل) بيـــا ع الـــثلج ينهبل . علي يسار"أبو يوسف" يجلس حسن صـــامتا مثـــل أبي الهـــول، يحترمه الكبار و يهابه الصغار يسمونه حسن الأسد يقول أبو يوسف أنت مثل يوسف وحسن مثل كمونه قبل أن ينفلت عيـــاره، حينمـــا يرتفـــع

صراخ الجدة لكمونه يقول لها مفيش فايدة يـــا أم الدســـوقي ، عليــه العوض.

عندما قاطع العمال العرب السفن الأمريكية كانـــت ســـفينة يوسف في نيويورك ومنها جاء خبره، قالت الرسالة مات في مشاجرة مع ثلاثة من اليهود، صاح حسن لقد غدروه يوسف لا يموت في مشـــاجرة مع عشرين رجلا .

ربط أبو يوسف قاربه في وتد كبير على شط البحيرة وجلـــس أمام بيته يتكلم مع يوسف يوبخه ، أحيانا وأحيانا يقـــول أنـــا الســـبب حذرتك من الخمرة ومن النسوان نسيت أحذرك من اليهود، وأحيانـــا يضحك معه، وفي كبد الليل تخرج صرخته مثل أسد جريح غدروك يـــا ولدى أنت فين يا يوسف ساعتها تملأ الدموع كل بيت في الحرية.

جلست أم الدسوقي أمام بيتها في الصباح ، نظرت إلى الناس كأنها تراهم لأول مرة ، الناس لم يعودوا هم الناس ، هي أيضا لم تعد هي، أصبحت عجوزا و ثقل الحمل عليها ،بعدما ماتت فاطمة وهي تلد كمونة تشاءم الناس من الولد حتى أباه تركه ، خرج و لم ينطق بكلمة واحدة ،كانت ابنتها خضرة مخطوبة لرجل ثقيل لا تحبه رفضت أم الدسوقي فسخ الخطبة، اختلف الأمر بعد موت فاطمة و كان أبو كمونة رجلا طيبا قبلته أم الدسوقي حرصا على مصلحة اليتيم ولكن تقدّرون و تضحك الأقدار، رفض العريس و العروس الطفل ، هي لا تنكر أنها سعدت بذلك فقد تعلقت به بشدة فهو ولد الولد كما يقولون خاصة و أنه أعاد إليها أمومتها الضائعة، أسال اللبن من صدرها العاجف لبنا غزيرا مشبعاً، قدرٌ من السماء وهى المؤمنة تقبلت قدر الله ، و لكن الآن و قد وهن منها العظم و كثرت مشاكله في الشارع ومع الجيران أصبح الأمر فوق طاقتها •

- صباح الخير يا أم الدسوقي •
- صبحك الله بالخير ، مالك؟
- الكلب يا أم الدسوقي حاله أصبح عجب •

ضحكت أم الدسوقي- أمس جرى الكلب وراء صاحبه بطول الحرية و عرضها و الناس تضحك ولا أحد يحوش ، يقولون الأسكى يأكل طعام كلبه .

قال الأسكى : قبل يومين من وصول خبر يوسف جن الكلب وقف في الليل يعوي، لم أستطع النوم وخفت من الجيران فضربته بالعصي فهجم عليّ، أصبحت أخاف منه و لم يعد يسمع الكلام ،أجرى وهو ورائي و الناس تضحك ، يقول كمونه ضع له السم في الطعام، قلبي لا يطاوعني يا حاجة قلبي لا يطاوعني ، الليلة ظل يعوي طول الليل ألطف يا رب ألطف يا لطيف .

مضى الأسكى و ازدادت حيرة العجوز ، مازال قلبها منقبضا، قامت و توضأت، تصلى من قلبها ، أطالت السجود، سالت دموعها على السجادة و أكثرت من الدعاء .

اليوم عيد الجلاء، استيقظت مبكرا، أول مرة يزورنا كمونة في الصباح قال بعد أن تناولنا الفطور : تعال معي إلى سينما الأهلي فيها فيلم جميل ، قلت : اتفقت مع عمي أن نذهب إلى سينما الشرق في المساء ، قال كمونة تعال معي الحفلة صباحية ..فيلم عربي لا أتذكره ثم فيلم لطرزان و الفيلم الثالث لاستيوارت جرانجر اسمه "سيف لانسلوت" ، فيلم رومانسي عن الحب و الواجب في عالم الفرسان، خرج الأطفال من السينما وقد أمسك بعضهم بجريد الأقفاص يتبارزون في الشوارع ، ذهبت إلى محلنا في شارع كسرى لم أجد أبي ، على الطاولة الرخامية ترقد سكاكين الحلوى الطويلة، بدون كلام أمسك كمونة واحدة وأمسكت أخرى و ظللنا نتبارز، دافعت عن نفسي ببراعة وكمونة يصرخ و يحاصرني في الركن و عيناه تقدحان شررا ، لو شئت أن أجرحه لجرحته كنت فقط أدافع عن حياتي باستماتة و لولا أن دخل أبي و في يده عصا كبيرة لحدثت كارثة لا يعلم مداها إلا الله، لم أترك سيفي إلا بعد أن خرج كمونة من المحل و هو يجري كالمجنون ، قال أبي لا تمشِ مع هذا الولد بعد الآن .

لم يصدق القاضي أن هذا الصبي البريء الواقف أمامه قام وحده بهذه المجزرة ولكنه أمام القرائن و الشهود حكم عليه بالسجن شهرين رغم توسلات المحامي أن يوقف التنفيذ حرصا على مستقبله ، خرج العفريت المحبوس، أصبح كمونة عبئا ثقيلا على الشارع . قال الناس لولا العجوز لأحرقنا عليه المنزل . قبل هذه الحادثة كان يقفز إلى حدائق الجيران يتلصص على نسائهم و ينزو على حيواناتهم ، الآن أصبح الجميع مهددا .

قال لي مرة ليس لي في الدنيا نصير سوى هذا وأشار إلى ذراعه و هذا و أشار إلى ما بين فخذيه ثم نظر إلى الأرض في خجل و أضاف و أنت و العجوز .

قلت لها :كمونة يحبك ، حرام عليكِ ، الرجل يكاد يموت همّا.

قالت: صدقني كمونة الذي تعرف مات ، أرى الآن شخصا آخر يملؤني رعبا، لو أرغمني آخي على الزوّاج منه لقتلت نفسي ،

أخوها حسن الأسد ، الوحيد في الشارع الذي يهابه كمونه ويعمل له ألف حساب، يبكي و يقول كل شئ إلا صباح هي حياتي ونور عيني ، كيف تخاف مني ، إني أخاف عليها من الهواء الذي تتنفسه.

المتولي أصغر أخوالي ، يناديه الناس بالقطب ، يعمل في المــواني والمنائر ، يتنقل بين جزر البحر الأحمر الكثيرة ، قبطان السفينة التي تحمل المؤن والرسائل لحراس المنارات، يغيب بالشهور، أعرف مقدمه عنــدما أرى القواقع الكبيرة والصدفات الغريبة تملأ البيت ، أمسك القوقعة من طرفيها المدببين ، ليس في بحرنا قواقع بهذا الحجــم ، أرفعهــا إلى أذني ، أسمع هدير البحر، هذا الهدير يختلف عن هدير قواقعنا ، أنزلــق علــى حافتها الملساء، تسحبني أذني إلى عالم البحــر الأحمــر الغريــب ، لم أره ولكنني أعرف عنه الكثير من قصص ومغامرات هذا الخال السندباد •

يصنع من القواقع تحفا رائعة ، أباجورات تماثيل أنتيكات ، يقطــع فيهــا ويعدل أشكالها،أحيانا يستخدمها كاملة مع قليل من التحوير •

أصداف من كل لون وشكل ، قطع من المرجان الملون ، عــالم رائع من الفن الرباني ، يصنع أيضا من الخشب نماذج لسفن قديمــة ذات أشرعة ، يظنها من يراها قادمة من عالم جاليفر المسخوط •

الستائر البيضاء الشفافة مسدلة فوق الشبابيك ، حجرته مغلقة كي لا يدخلها الذباب ، و جدتي تحرس الصمت حتى لا يقوم غاضــبا، يتحمل كمونة هذه الأيام القليلة على مضض ، يكره هذا الخال الصريح

مثل البحر– اسمع يا بنى أنت تأكل من طعام هذه العجوز ، اذهب إلى أبيك هو أولى بك .

يكره خالي ويخشاه ، سمعت أمي تتكلم مع خالي ،في كل مرة يعطيها منديلا فيه بعض اللآلئ الصغيرة ، تضعها في صندوق خشبي مصدف ، كان يربي اللؤلؤ في جزر البحر الأحمر ، بعد عدة زيارات ، يأخذ الصندوق ويسافر إلى القاهرة ، قالت جدتي "القطب" مرزوق من يومه ، إذا أمسك التراب يتحول ذهبا في يديه ، قالت أمي لخالي اتق الله في كمونة ، اتق الله في اليتيم يا أخي ، قال صدقيني إنني أرى الموت في نظرته، إنه قاتلي و قاتل العجوز ، العجوز تربي الموت في بيتها .

عندما هاجم اليهود جزيرة شدوان بقي مع الرجال ، قال مساعده : قفز الريس متولي إلى الماء وسط الرصاص ، عاد إلى الجزيرة من الجهة الأخرى رأيته يصعد التبة العلوية ، أزاح الشهيد محمود ، أمسك الرشاش الثقيل بين يديه ، وانهمر الرصاص كالمطر ، قتل كل اليهود على المنحدر يفرون من أمامه كمن يرون عفريتا ... لم أنجح أبدا في أن أجعله يروي الحكاية ، إذا جاءت سيرة شدوان ، يقوم من المجلس ويظل طول اليوم في حجرته لا يكلم أحدا ، يقول المساعد كان الشهيد محمود صديقا للريس متولي ، في كل عام يزور قريته يذهب إلى المقابر

يقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة ويعود في نفس اليوم ، حتى أهل الشهيد فشلوا في أن يجعلوه يتكلم أو يبقى ، فتركوه على راحته.

يضحك من قلبه في سعادة وهو يحتضن الدنيسة الفضية وهى لا تزال عالقة في الصنارة ، يحادثها كما كنا نفعل ونحن صغارا ، تعاليلي يـــا بطة يا أم قتب ، تعالي تعالي ، يصبر عليها حتى يهدأ اضطرابها في صـــدره ثم ينزع الصنارة من فمها المسلح قبل أن يضعها في سبت الصيد . نجلس على الحجر الأصفر عند الكيلو "١٨ "جنوب المدينة . نأكل ونضـــحك ، ننظر إلى السفن العابرة ، هذه سفينة ركاب ، التي سبقتها ناقلة بترول تذهب إلى الجنوب فارغة و تعود محملة بثروة العـــرب المنهوبـــة ، قـــال كمونة : ليست فارغة تماما، يملئون التنكات بالماء العذب، فهي ذاهبـــة إلى حيث نقطة الماء أغلى من نقطة البترول ثم إنه لابد من ملء التنكات حتى تتوازن السفينة ولا تنقلب ،أحيانا يملئونها من مـــاء البحـــر عنـــد الضرورة .

يمسك بحصاة صغيرة يلقيها على فأر أطل من بين أحجار الشـــاطئ المتآكلة

— تعرف كنت أدعو الله وأنا صغير أن أظل صغيرا إلى الأبد، كنـــت أعرف ما ينتظرني و أخاف منه،

لحظه من لحظات الصفاء التي أحس فيها أننا أخوان حقيقيان. — لا تضحك على نفسك . لم يجبرك أحد على فعل ما فعلت،

— أنت تقول ذلك لو كنت مكاني لتغير الحال.

— أحبه مثل آخي ، لو كان لي أخ شقيق ما أحببته مثل ما

أحببت كمونة هو يعلم ذلك . كان الجميع يتعامل معه بحساسية الولد اليتيم إلا أنا، أتعامل معه بتلقائية الأخ لأخيه، ربما لم تكن نظرته لي على نفس المستوى، كنت أقدر ظروفه و أعذره، دائما كنت أجد له العذر.

— قال أبوك يرميك وهو حي ، خالتك زوجة أبيك ترفض أن

تضعك مع أخوتك، خالك الذي تأكل من طبقه يذكرك كل يوم أنك تسرقه ، و أنا صغير كانت العجوز تحميني ، لما اتسعت الدائرة كان لابد أن أدافع عن نفسي .. يوم الحادثة ذهبت إلى الفرح، وقفت في حلقة الضمة، صوت السلك الشجي، وصوت المغني الرخيم —كان يغنى "نوح الحمام" — .. و العريس و العروس، وشاب نحيف يرقص —يقلد يوسف الغيطاني — و لكن هو فين و يوسف فين، و هواء الصيف يبهج النفوس إلا نفسي ، كنت أفكر في مستقبلي، كان مرتبطا بقدرات العجوز المادية ، أنا لا أحلم أبعد من المدرسة المهنية التي بناها عبد الناصر في الحي الفقير

طموحي أكبر من ذلك و لكن عيني بصيرة و يد العجوز قصيرة ،صحيح أقسمتْ خالتك الصغيرة أن تصرف علي من مرتبـــها كـــان لا بـــد أن أرفض، كنت أتمنى أن يكون المتعهد خالك أو حـــتى أبي ، علـــى كـــل الأحوال يشكرون، الجميع يشكرون حتى خالك المتولي رغم قسوته .

كان لا بد أن أواجه مصيري وحدي بشجاعة و موضوعية ، أنا أختلف عنك أنت تعيش في حضن أمك وأبيك ، "أول مرة أراه يتيمـــا ، عيناه تجهدان أن تبتلعا دمعهما الساخن" ، في هذا الوقت بالذات وقعت اللطمة على قفاي ، استخفهم الحشيش فاستضعفوني قاومتهم غلبـــوني، قهروني بكثرتهم و الناس تتفرج ، هؤلاء الجيران الكلاب، لو كنت ابنا لواحد منهم لقامت الدنيا ولم تقعد، دخلت إلى المترل مجرحا و مهانـــا ، العجوز نائمة، مجرد عجوز ضعيفة تثير الشفقة، خجلـــت أن أوقظهـــا لأشكو لها كما كنت أفعل في مثل هذه الظروف، وقعـــت عـــيني علـــى السكين الكبير ، يشبه السكين الذي تبارزنا به أنا وأنت صباحا ، هـــل تذكر،عدت إلى الفرح لأسترد كرامتي وحدي وبـــذراعي ضـــد هـــذا الكون الظالم، تمنيت أن تكون في يدي قنبلة أنسف بها الجميع ، صـــدقني كنت مدفوعا بقوة أكبر مني، ربما هي قوة الحياة ، أو ربما هي قوة الموت ، لا فرق ثم من يستطيع إيقاف حجر يتدحرج من قمة الجبل.

ثم نظر إلى الرمل تحت قدميه و قال لا تصدقني إذا قلت لـــك
إنني لم أعتدِ على امرأة في حياتي ، يطاردنني، هؤلاء النسوة الملاعين.

نعم أصدقه ، كنا صغارا والهواء متوقف في السحيرة، والقلوع خاوية ومرخية، والحر، والرطوبة، تنز عرقا على لحمنا الساخن ، غلبنا النوم ، نزلنا إلى جوف المركب ، النسوة الفلاحات ، وأقفاص الدواجن الفارغة ، يأتين بها ممتلئة ويعدن وهى خاوية ، عكس الطير تغدو خماصا وتعود بطانا ، يجلبن للمدينة خير الريف عسل النحل ،السريس ، الحميض، الجعضيض، الجبن القريش، الزبدة، البيض ،البط ،الأرانب، الفراخ الفلاحى العتائق والبرابر .

يضعن رؤوسهن على أي شئ ويرحن في سبات عميق كأنه الموت ، في المدينة ينمن في الشوارع على الأرصفة ، نوما خفيفا متقطعا بجوار أقفاصهن ، في جماعات صغيرة طلبا للدفء وللأمان ، يملأن المدينة في المواسم والأعياد، في رأس السنة يجلبن للخواجات الديوك الرومي والخادمات الصغيرات ، يحلقن عند باندونج الحلاق ، قبل الحمام ، لابد أن تسلم الفتاة سليمة ونظيفة لسيدها في حي الإفرنج ، فتيات نحيفات، صدورهن في حجم الخوخة الصغيرة ، ينتظرن في خضوع ، يمسك الحلاق الخبير الرأس الضعيفة كما يقبض على جوزة هند صغيرة ، يمسح شعرها بالموسى ، تخرج من تحت يده صلعاء بيضاء ، تدوس تاجها بقدميها الحافيتين ، لا يتركها إلا بعد أن يمسح رأسها بالجاز ليقضي على

كل أثر للقمل والصنبان ، يتغير شكلها إلا عيناها المرتاعتان ، مومياوات عجفاوات خرجن توا من تابوت فرعوني قديم ، لا

يدري من ينظر إليهن أن كن ذكرانا أم إناثا ، يتـــابعهن بانـــدونج بنظره مثل كاهن فرعوني حكيم يدرك خطورة ما يفعل ، يعرف تأثير هذه النقلة الجسدية الكبيرة على تلك الأ.واح الغضة المتكسرة ، يغسل يديه ويطهرها بالديتول قبل أن يجففها في فوطة متقرحة، يبدو مثل طبيب ماهر قام بعملية جراحية ناجحة ، ينظر إلى نفسه في المــرآة وجهــه متــورد وفخور .

تمشي القروية العجوز بردائها الأســود الســابغ وخلفهــا هــذه المخلوقات التي شكلها باندونج ، خراف يساق للذبح على مذبح الفقر ، يذهبن إلى الإنكلستوما يتجرعن شربة الدود شديدة المرارة .

عائدات إلى قراهن ، النسبة الغالبة من العجــائز ، تبقــى النســاء المسافرات على سطح السفينة في جماعات ، لايترل إلي القــاع ســوى هؤلاء النسوة المرهقات والأطفال ، اليد الخشــنة المدربــة تعبــث بي ، صحوت وناديت أمي ، أحضرت الماء ، شربت وعدت ثانيا إلى النــوم وأنا أضع وجهي في الألواح الخشبية المحدبة ، تكورت على نفسي ، بقي كمونة في مكانه وسط هذا اللحم المكدود . في الصباح تمد المرأة يــدها بالرغيف الأحمر ، خذ يا ضنايا أمك تقول أنك تحب العجوزة – لا أحب

العجوزة – تحب الجبنة أم العسل – لا أريد شيئا . ربما تلك اليد الممدودة هي العابثة بي في الليل ، تقلب المرأة نظرها بيني وبين كمونة الذي يأكل في صمت ، فتاة يافعة جلست بعيدا ترقبنا بعينين ترك الشقاء بصمته الواضحة فيهما ، ما حدث بالليل ضاع مثل حجر سقط في البحر ، لم أتذكره إلا الآن ، قلت له وأنا أضحك هل تذكر زوجة مصباح اللبان، تجهم وجه كمونة وقال الله يسامحها . هي الآن في المكان الوحيد الذي يملأ عينيها الفارغتين . نتنافس أنا و كمونة في كل شئ ، ركوب الدراجات ، لعب الكره، البلى ، السويسية . أغلبه في أشياء و يغلبني في أخرى.



يفتخر كمونة بسبقه مع النساء ، مع الوقت بدأ يحزن لانصراف الفتيات عنه ، يقمن من المجلس إذا حضر ، قالت زينب لا نحب نظرته القبيحة ، في الواقع نظرُ كمونة ضعيف ، وهو في الأصل خجول ، أكثر ما ينظر إلى الأرض ، ولكنه الوهم . وهذه الشهرة الفاشية بين النساء خاصة بعد حكاية فرحة زوجة مصباح بائع اللبن ، أتى بها من الريف بعد موت زوجته التي لم تترك له عقبا ، أحضرها بابنتها الصبية ، يُحضِر الرجالُ في مثل ظروف مصباح فتيات أبكارا ، يفرحن بالقدوم إلى" البَلط "– حياةُ الأنثى في الريف المصري قطعةٌ من العذاب – لا ندري ما الذي دفع مصباح إلى فعل ذلك ، صحيح" فرحة" جميلة مثل خوخة ناضجة وصغيرة السن لا نكاد نفرقها عن ابنتها، ولكن الزواجَ قسمة ونصيب كما تقول أم الدسوقي .

تعَود كمونة أن يكون محلا للعطف المبالغ فيه من النساء ، يترحمن على أمه ويشبعنه أحضانا وتقبيلا ، بعد أن أصبح صبيا يافعا قلّ حدوث ذلك خاصة أمام العجوز ، وبعد أن بدأ الصبي يتذوق القبلات والضم ، يحكى لي عن خبث النساء ، خاصة الأرامل والمطلقات ، قال عندما قبلتني فرحة ، أحسست أن وجهي اشتعلت فيه النار ، كلما

رأته قبلته ، في أي مكان وفي أية مناسبة ، عشقتْ فرحة الفتى كمونـــة ، أشاعتْ أنه تكلم مع مصباح عن ابنتها حتى تبرر دخوله وخروجه مـــن بيتها ، نفى كمونة هذه الإشاعة ، الكل يعرف حبه لصباح أخت الأسد ، كلم أبا يوسف عنها قبل موته الفاجع ، نفور صباح المفاجئ من كمونة جعل لشائعة فرحة يدين ورجلين، قال، ها– أنا أمْ مصباح– قالت أيـــن أنت منه مصباح رجل "ملو هدومه "، أنت عيل ثم تنهدت وقبلته وقالت ولكن القلب وما يريد .

في إحدى المرات أقبل كمونة مبتهجا قال : لبدْتُ لمصباح حتى رأيته يبول في الخرابة ، جريت نحوه ورأيته شيئه ، صغيرا مثل قرن الفول الحرادي ، يضحك كمونة ويقول : الكدابة بنت الكلب . ماتت فرحة في حادثة سيارة قطعوا ساقيها حتى تعيش ، لم يدُرِ العام إلا وجاء أهلـــها، أخذوها معهم ليدفنوها في قريتها .

الصيف أجمل الوقت ، فيه تمتلئ المدينة بالأغراب ، فيه أيضاً النساء يكشفن كنوزهن التي ظلت مختبئة في الشتاء تحت ملابسهن الثقيلة الظالمة .

الصيف هو الجنة للناس و لنا ، أنا و كمونة .

يعطيني أبي افضل ما ينتج من البقلاوة ، الأكبر حجماً والأجمل شكلاً ، يسقيها بالسمن البلدي الساخن ، لحظة خروجها من فرن عزت – في شارع الحميدي – يحمر وجهها في الحال ، يسقيها بالعسل الأبيض الشفاف فتظل تشرب حتى يخفت هسيسها .

لحظة وصولي إلى الشاطئ تتزاحم الأيدي ، انتهي في دقائق .

قلت لأبي أعطني أكثر ، قال : باوك الله فيما رزق ،بالقليل يسعون إليك ، بالكثير يزهدون ، فتسعى أنت إليهم ، وتفقد من نفسك .

نخلع ملابسنا ، نتسابق إلى البحر أنا بالشورت الذي صنعته أمي من بنطلوني القديم – قصت أرجله من فوق الركبة ، جعلت له حافة مثنية مستوية وكأنه مصمم أصلاً للماء – و كمونة بلباسه الكتان الفضفاض ، نخرج مبللين تتناثر القطرات حولنا من شعرنا وجسدنا

الساخن ، نداری أعضاءنا التي شكلها الماء تحت القماش المبتل ، نتواری خلف أي حائط في مواجهة الشمس ، ننتظر قليلاً حتى نجف ثم نرتدي ملابسنا ونمضي .

قالت المرأة بصوت مريب وهى تنظر إلى لحمنا البرونزي وأجزائنا البارزة التي أنعشتها حرارة الشمس وسخونة الملح :
أدخلا لتغسلا جسديكما بالماء العذب ، أنا وحدي .

امرأة بيضاء، في آخر الشباب اعتذرنا ومضينا ، قال كمونة نسيت شيئاً ربما وقع في الرمل ، اذهب أنت وسألحق بك .. صعدت الدرجات القليلة التي تؤدى إلى البلكونة المفتوحة على البحر، من بين فتحات الشيش المغلق كمونة عاريا يصهل و المرأة تحته كتلة من اللحم الأبيض الفاره ، تعجبت وقتها كيف لهذا الجسدالصبي يسبغ سطوته على هذا الجسد الأنثوي الكبير ؟

تتنقل كفاه بسرعة واضطراب بين الصدر والبطن والوركين ، يتخبط مثل غريق سقط في بركة من اللبن ، كفاه تتبدلان في تشنج واضطراب ، يكبش في اللحم ويتحشرج و المرأة تقوده ، تمكنه في غنج ونشوة وهو يعلو ويهبط عنيفا ومتوحشا .

دخلت بيتنا لم أنظر في عيني أحد ، اتجهت إلى الحمام مباشــرة بقيت تحت الماء فترة طويلة أطفئ جسدي بالماء الطاهر أغسل أثر الملــح والنجاسة .

ما إن غادر الرجل الغرفة حتى سقط بجوار حقيبته ، نظـــر إلى الباب المفتوح ثم مدد رجليه ، أسند رأسه إلى الحائط الجـــيري خلفـــه ، ثلاثة أيام ، أطول ثلاثة أيام في التاريخ ، وما رأى مختلف تماما عما سمع ، فهذه قهوة الجعافرة في شارع كلوت بك لم يرَ فيها ذلك النصاب الـــذي حذروه كثيرا منه ، فقط هذا الصعيدي الشاب برقبته الطويلة و عمامته الناصعة ، يشبه تماما ذلك الصعيدي العجوز المعلق فوق رأسه في إطـــاره العتيق ، نفس الأنف الضخم والعينين النفاذتين ، إلا أن شارب العجـــوز فيه بدائية وضراوة —الحساب بعدين أنت اليوم ضيفنا — كيـــف عـــرف أنني غريب ؟ لابد أن يعرف أي انسان أنني غريب ، هذه الحقيبة المرهقة ، وهذا الانطواء و التوجس ، وذلك الانـــدهاش الحـــذر ، و العينـــان الثقيلتان ، لا يحتاج الأمر لفراسة من أي نوع — كلوت بـــك طبيـــب انجليزي " قال الشاب النحيل لزميله في الطاولة المجاورة " — أه يا ســـعد كم من الخرافات عن القاهرة ملأت بها رأسي — ذكر سعد ســـببا أخـــر لتسمية الشارع ، سببا له علاقة بملابس المرأة الداخلية ، فهمت منـــه أن هذا الشارع تمارس فيه النساء أقدم مهنة في التاريخ . بعـــد أن ضـــبطه أصحاب البيت يقبل ابنتهم في الحوش المظلم خلف ورشة عمي أحمد فـــر

سعد إلى القاهرة، ولد جميل وسط اخوة عجاف ، شعر أصفر . عينان خضراوان في وجه أبيض كالحليب ، أمه نحيلة سمراء فمها ضاحك على الدوام ، تجلس على البسطة الكبيرة أمام باب بيتنا المفتوح تقول: آخذ نفسي الأول ، هنا طراوة ، في كل مرة تفعل ذلك وعلى صوتها تتجمع النساء من بيدها ثوم أو أرز ، يجلسن بجوارها على البسطة وعلى درجات السلم الخشبي ، في موسم الجمبري يتحلقن حول الطشت الكبير لا يحلو تقشير الجمبري إلا على حكايات أم سعد ، تقول أم العربي : كل واحدة تمد حلتها ، تسمي و تكبش من الصينية الكبيرة و تضع في الحلل و هي تقول : بختك يا أبو بخيت ستعرف عدد كل أسرة — لا ينظر أحد إلى يدها فالكل عينه مليانة ، نشم رائحته الفواحة من أول الشارع ونحن قادمون من المدرسة خاصة "المدفونة " في الحلة النحاسية الكبيرة التي لا بد أن يرقص فيها عم محمود مبيض النحاس مرة في الأسبوع على الأقل .

هذا الرجل يرقص في حلل الشارع طوال اليوم ، ما أشهى هذا الأرز البني المختلط بالجمبري الغليظ الطازج الشهي ، ماهرات هؤلاء النسوة في طبخ كل ما يخرج من البحر ، الحارات ضيقة والبيوت ضيقة وقلوب الناس واسعة بيضاء وعامرة ، والبركة من الله كما تقول ماما نعيمة "أم العربي " يثقن بها يسلمن لها القيادة عن طيب خاطر ، هي التي

تنظم الجمعية وترتب أدوارها فهي الأعلم بظروف الجميع ، وهي الــتي تحتضن المولود الجديد وتطوف به في البخور يوم السبوع ، وهــي الــتي تخرم أذن الفتيات وتنصح الأمهات بختان أولادهن و بناتهن إذا آن الأوان – تضحك أم العربي "أمي" حتى تدمع عيناها وأم ســعد تحكــى كيــف اقتادها الناس إلى قسم الشرطة و سعد على كتفها لا يكف عن الصراخ ، لم يصدقوا أنه ابنها من دمها و لحمها ، لأم سعد أداؤها الخاص عنــدما تحكى ، تقول أمي لا تصدقوا أم سعد لو قالت البحر ملآن بالماء •

– ستجدني في" الفوطية" قريبا من كلوت بك
–الفوطية كبيرة ألم يقل لك في أي "عطفة "؟
عطفة! • • كلمة جديده على أذنيه، أول كلمة في المعجم القاهري.

الصيف عندنا موسم الماء ،المالح أولا بعده العذب ، والملابس الخفيفة والهواء المنعش ، ما الذي أتى بي إلى هذا الجحيم؟
هده التعب والعرق وهذه الحقيبة التي تزداد ثقلا مع الوقت ، ينتقل بها من ورشة إلى ورشة ، فتحة صغيرةٌ في جدار ثم تنفتح علي قبو مظلم ممتد ، يتفرس في هذه الوجوه الضامرة، هذه الكائنات الممصوصة التي تشبه الفئران ، خلعوا قمصانهم ، منكبون فوق البنك ، عيونهم في نعل الحذاء أو في وجهه ، أذرعهم النحيلة تتحرك بسرعة و حذق رغم الظلام والعرق والحر وقلة الهواء ورائحة الجلد الفائحة .
– يقول عمي أحمد القاهرة ملعونة تأخذ الرجل لحما وترميه عظما ، ومع ذلك من أراد أن يمسك فلوسا فليذهب إلى القاهرة أما الصنعة فإنها في الإسكندرية • • الإسكندرية حاضرة دائماً مع هذا العم الوسيم الذي يشبه نجوم السينما ، يقف أمام مرآة الدولاب الكبير يمشط شعرة الطويل

يعدل البوجودينو ، يضع الكولونيا ذات الرائحة المميزة ، يأتي بلا ميعاد أحياناً في الصيف و أحياناً في الشتاء، يأتي مبتهجاً وبالغ الأناقة يـــرفعني فوق الدولاب الكبير و يقول:

لن أنزلك إلا إذا بكيت وأنا أضحك وألمس ســـقف البيــت الأبيض العالي ، يمنحني خمسة قروش كاملة ويضحك بصوت عالٍ مجلجل ، في أوقات أخرى يزورنا مشعثاً وصامتاً ولا أراه إلا في المساء يأكل ثم ينام على الكنبة الكبيرة بجانب الراديو الفيليبس الكـــبير يســـتمع إلى أم كلثوم في الظلام ، وكما يأتي فجأة يختفي ، يقولون على "الأورنـــة "" الإمة " والنساء يشربن دم الترسة المذبوحة ساخناً ويقولون "أحيه"هـــذا اللفظ الذي لو قالته المرأة عندنا لذبحها أهلها ، يتكلم عن سينما الهامبرا وريالتو وماجيستك، أقول له لماذا لا توجد عندنا سينما الهـــامبرا كمـــا أخذوا سينما ريالتو يعطوننا سينما الهامبرا ، يضـــحك عمـــي ويقـــول الإسكندرية جميلة بصحيح ، أقول له — بورسعيد أجمل بلد في الـــدنيا ، يتكلم عن الأسطى الخواجة صاحب العمل والتزامه بالمواعيد والأمانـــة والصدق ، يقول يحبني يعطيني أعلى أجر في الورشة ، أنـــا أول مـــن يجلس على البنك وأول من يقوم ، يمسك الخواجة بالحذاء يقلبه بين يديه يضعه أمام الجميع ويقول أريدكم جميعاً أن تصنعوا أحذيـــة مثـــل الـــتي يصنعها "أحمد" .

ورش القاهرة قذرة وقاسية ولها رائحة نفاذة ، كيف يتحمل سعد الحياة في هذه القبور المتقيحة .

تغور القاهرة بفلوسها " يقول الأسطى غريب الدقناوي وهو يضع الجوزة بقرف " ، وقت الراحة يلعبْ الجميع الكرة "الكياس" في الشارع أمام الورشة ويظل الأسطى غريب جالساً أمام بنكه وتحت قدميه سعد لا يفارقه يجهز له الجوزة وكراسي المعسل المعمر بالحشيش ، الوحيد الذي يحشش وهو يعمل ، حتى عمي لا يستطيع أن يكلمه فهو أسطى الجميع الكبار قبل الصغار ، يحكي لي سعد عن ورشة الأسطى غريب في القاهرة وكيف جرى المال في يديه فتزوج قاهريتين جميلتين واحدة سمراء والأخرى بيضاء ، يفتح سعد عينيه على آخرهما ثم يقول في صوت خفيض كان ينام معهما في سرير واحد ، الآن ضاعت الصحة والفلوس وهاهو في ورشة عمي أحمد يحكي القصص التي لا تنتهي ،يقول النسوان لا تحب البخيل ثم يتنهد ويقول الحمد لله على الفقر و الجدعنة ، إذا دخلت عليه القهوة لا يمكن أن تدفع الحساب ، في الخناقات يدافع عن صديقه بروحه ولا ينظر في وجه جارته رغم ولعه الشديد بالنساء، لماذا كلما أراه أتذكر انطوني كوين في "مدافع نافارون" وفي "زوربا اليوناني" وأتخيله دائماً في دور الأسطى غريب الدقناوي ، هذا العجوز الطويل

بشعره الرمادي الجميل و"الكاريه" في مقدمة رأسه مثل عرف الـديك وهذه الشعرات المهملة الساقطة على جبهته وشاربه الذي يكتمل به هذا الوجه الرجولي الوسيم وهذه الأناقة البسيطة الراقية وهـذه القصص العجيبة عن النساء.

يخرج من زقاق ليدخل في زقاق . .

كل هذه البيوت القديمة والمشربيات والمساجد والأسبلة ،خذوا سنيني والجامعة وكل شئ فقط دعوني أسكن هنا.

بينه وبين المكان ألفة دفينة أمر متصـل بالجـذور، بالجينـات، بالتاريخ، والجغرافية، والثقافة، والدين، والحضارة، والوجـود، شـئ في الدم والأعصاب ، لم يعد يرى وجوه العابرين، عبر البوابة المستحيلة ، خرج من سلطان الزمن، هذه الورش تختبئ تحت إبـط التـاريخ، هـذه السلالم الصخرية القديمة يترلها أو يصعدها ، كيف سمحوا لهذه الـورش القذرة أن تزعج التاريخ بهذه الصورة البشعة. .يضحك الرجل القاهري ويقول :

هذه المباني ملك للحكومة وهى خرائب كما ترى لا يسـكنها أحد. دخل الميضة ومعه حقيبته القديمة والتي يزداد ثقلها مع الوقـت ، خلع حذاءه الجديد، لبس القبقاب الخشبي الضخم كاد يقع أكثر من مرة وهو يرفع رأسه حتى يرى سقف المكان العالي، الجدران قديمة وحجـارة

الأرض الضخمة حفرت فيها أقدام الناس، وهـــذه الرطوبـــة المعتقـــة، والهواء، كل هواء القاهرة معبأ في هذا المسجد الكبير .

حاول أن يركز في الصلاة، عندما انتهى أخيرا جلـــس علـــى الحصير الرطب بجوار العامود العملاق يتأمل في هذا التاريخ الحي.

في لوكاندة السعادة في أول شارع كلوت بك من جهـــة العتبـــة قريبا من قهوة الجعافرة قضى أول ليلة في القاهرة، جلـــس في البلكونـــة الصغيرة ذات السور الحديدي الرفيع ينظر إلى الشارع العتيق، أين يا رجل النساء الفاتنات الواقفات علي النواصي وعلى عتبات البيوت ـــ علـــى الواقف بشلن وعلى السرير ببريزة ـــ أين أنت يا سعد، أين أنـــت أيهـــا الكاذب الكبير.

هدأت حركة الترام، دخل الليل في سكون الفجـــر ومـــازال الصهد يفح في هذه الحجرة الكئيبة، لا يستطيع أن يضع جســـده علـــى السرير، أين الهواء يا ناس أليس في هذه المدينة اللعينة نسمة واحدة مـــن الهواء، يعود إلى بلكونته الصغيرة المعلقة بين الســـماء والأرض، لا لـــون لهذه البيوت العابسة، فقط هذا الغبار الذي رآه أول مرة في محطة مصر، كل ظل هو شبح لامرأة، كل قطة تموء صوت لأنثى شبقة

صوت أمه"ما يضيعش الراجل إلا النسوان"

صوت أبيه "مفيش مره تضيع راجل"

.. إنني ضائع هناك في حارة البكري – سحرتني فتاة جميلـــة لا قلـــب لها.

– بكره تنسى – النسوان في مصر هينسوك اسمك

– ليتني أصدقك يا سعد، أنت لا تعرف ما بقلبي

أطلت من الشرق شمس يوم قاهري جديد أيقظت بأظافرها هذا الكـــائن المتخشب في هذه البلكونة الصغيرة ذات السور الحديدي والمعلقة بـــين السماء والأرض ٠

قال المسئول :

المدينة مكتملة ، لماذا لم تتقدم في الميعاد ؟

ثمانية عشر عاما وأنت تجهزني لهذا اليوم ولم تعرف يـــا أبي أن للمدينـــة الجامعية ميعادا للتقديم .

مالك والمدينة الجامعية ، قلت سأرسله للجامعة وهاأنت قـــد أرسلتني بحقيبتي القديمة وعشرة الجنيهات التي لم تعد بعد عشرة جنيهات ، أنت لا تعرف الفرق بين أن أسكن في الجنة وبين أن أتشرد وحيـــدا في مدينة مخيفة مثل القاهرة ، وكيف لك أن تعرف ولم يسبقني مـــن أبنـــاء الحارة سوى ابنة المخبر التي يتباهى بها في كل مناســـبة وفي كـــل غـــير مناسبة .

– الجامعة "مش بعض" وليست مفتوحة لكل من هب ودب

– آه يا ابن الكلب أنت لا تعرف – وربما تعرف – لماذا لا أستطيع أن أرد عليك.

قال الكابتن فرج :

أعوذ بالله فقر وعنطزة ، رجل قصير بهذا الختم على قفاه وهذا الوشم الأخضر على جانبي رأسه المستدير بلا رقبة على هذين الكتفين الضيقتين .

لا يتذكر أحد متى رآه أول مرة

يقول أبو عوض البقال :

ربما أتى مع الفيضان إلى البحر المالح

يقول عم محمود الحلاق :

يجيء الصعيدي على بلاص مش أو على بلاص عسل ، وهذا جاء على بلاص خره .

يقف لحظات فوق الحجر الأبيض الكبير و الذي يملأ المسافة بين عتبة الباب وبين لحم الشارع الحي ، يخرج دراجته الكبيرة ويغلق باب المندرة الخشبي وراءه .

يسير على أرضية الحارة البازلتية السوداء حتى عندما يصل إلى شارع أسوان العريض يستمر في السير على الإسفلت ولا يركب دراجته إلا بعد أن يبتعد عن العيون .

لا يحب أحدا .... ولم أر واحدا يحبه .

ثلاثة أيام كبيسة وأنا أحرث المنطقة المحيطة بالجامعة ، بين السرايات، عزبة أبو قتاتة ، ليس ارتفاع الإيجار فقط ، ببساطة لا أرتاح لهذه الأماكن المزدحمة ، ثم إن مستوى الأماكن المعروضة أقل دائما من قيمة الإيجار، وأنا أريد مكانا أرتاح فيه وبثمن مناسب .

أجلس في حديقة الأورمان تحت شجرة من تلك الأشجار الجميلة الغريبة ، يقولون أمر الملك بإحضارها من أقطار الأرض لهذه الحديقة الرائعة ، أكيد لم يكن من أهدافه أن تكون موئلا لهذا المخلوق الفقير القادم من أقصى شمال مصر ، يستظل من الشمس الحارقة وفى يده رغيف الفول ، كل لحظة ترقب وكل موقف مفاجأة وكل قرش أصرفه استنزاف يجب أن يكون في أضيق الحدود .

– خذ يا بنى لقمة ، أكيد لم تأكل منذ الصباح

– أشكرك ، أكلت منذ قليل

– أنت بخيل والا إيه ، أنا لا يسكن عندي بخيل، يا سهير هاتي القلة لأخيك ، من يراه الآن لا يراه منذ قليل وهو يساومني على الإيجار

– ستة جنيهات كتير يا حاج

– إنها ثلاث غرف ، وأنت تقول معك زميلان ، وافق الرجـــل أخـــيرا على أربعة جنيهات ونصف .

من يجد مكانا مناسبا يعمل حساب الآخر ، قال عم مسعد وهو يغـــادر قهوة الجعافرة ممسكا بيد ابنه أحمد ، قابلتهما بعد ذلك في عمـــارة عمـــر الجيزاوي أقصد سجن عمر الجيزاوي ، زنازين ملتصقة بجوار بعضها متر في متر والليلة ببريزة والدفع مقدما ، مكان للطوارئ أرخص كثيرا مـــن لوكاندة السعادة ، صحيح طارت البريزة لكن الحمد لله ها أنا في بيـــت حقيقي وناس طيبين .

قال عم مسعد بعد أن عدل نظارته السميكة فوق عينيه

– المكان مناسب ، والله انت جدع يا أبوعرب ، كيـــف وصـــلت إلى هذا المكان ؟

– أنت لا تعرف يا عم مسعد ، إنها رحلة طويلة ، طويلة جدا.

يذكرني مولد إسماعيل الإمبابي بحارة العيد في بورسعيد، نفس المراجيح ، نفس الألعاب تقريبا، الروح فقط هي المختلفة ، ربما الاختلاف الكبير في الناس ، فلاحون بسطاء وهادئون ، لفرحهم وبهجتهم حدود ، ليسوا مثلنا الحواجز مرفوعة ولا حدّ لعواطفنا ، يعجبون بفتوتنا وشكلنا المبهج الغريب ، يندهشون من جرأتنا واقتحامنا وكسرنا للمألوف ، فيهم عبق الأرض وثباتها ، وفينا خفة الماء ونزق البحر . لاتوجد في مولد الإمبابي عربات اليد المظللة بملاءات السرير ، حولها الدكك الخشبية ، كل طفل أمامه طبق البكلويز الابيض الساخن ورائحته المختلطة برائحة الثوم وعلى رأس العربة وابور الجاز يزمجر تحت الإناء الفواح .

لا يوجد البكلويز الأبيض إلا في البحيرة ، مثل بندقة كبيرة ، صدفته مضلعة تشبه الصدفة المرسومة على الاسترنات العملاقة التي تمخر القناة وفي جوفها بترول العرب المسروق ، كما يقول الأستاذ عبد المقصود في حصة الجغرافيا .

البكلويز الأحمر والأسود في القنال الداخلي ، أقرب إلى شكل اللوزة الكبيرة ، صدفته رخامية ملساء .

لا أحب الاحتباس مع الحاوي أعلم أنه دجال ، ولم يدهشني أيضا بريللو الإيطالي و دورانه بالموتوسيكل في برميله الخشبي الكبير ، أحس أنني أستطيع أن أفعل أكثر منه حتى بموتوسيكل حواتر الماتشليز الثقيل .

حينما ترانا يرتفع صوتها " قرب قرب فتح عينك تاكل ملبن " هذه الغجرية النحيلة بردائها المزركش ، وعينيها الكحيلتين .

أقوم بالاستعراض المجاني ، أقبض على البندقية بيد واحدة وأصوب من أوضاع صعبة ثم أختم استعراضي بأن أضع تعريفة مخرومة أمام البمبة .

مع صوت الفرقعة يقفز البلاسي في الهواء فرحا كطفل وقد فتح عينيه الصغيرتين خلف نظارته السميكة ، لم أرَ استدارة عينيه الصغيرتين إلا في مولد إسماعيل الإمبابي .

يرتفع صوتها مع كل فرقعة ببهجة ذات معنى ، وقد وضعت أصابعها الرفيعة فوق ذراعي " قرب قرب تاكل ملبن قرب قرب تاكل ملبن" .

عندما أصبح وحدي آخر الليل تشعلني لمسة أصابعها الرفيعة ، ويوقظ كل شياطيني صوتها الأنثوي المبحوح " قرب قرب فتح عينك تاكل ملبن " ، وأظل أتقلب في فراشي حتى الصباح .

منذ متى سـرى حبـها في دمـي ؟ لا أسـتطيع أن أحـدد البداية ..رشاد أفندي ، مدرسة السلام الإبتدائية ، هذا المدير السـمين، يقول في كل مرة جئت في وقتك يا محمد، غدا عيد ميلاد زوجتي ، ترفع زوجته البيضاء السمينة وجهها عن إبرة التريكـو، تنظـر إلى زوجهـا الكذاب ثم تعود إلي الصوف مرة أخرى ، تجلس صامتة في أقصى يسـار المكتب، لم تنتبه إلى وجودنا إلا في لحظة الكلام عنها ، يجهز أبي التورتـة ذات الأدوار، علب البندق واللوز والجوزالمغطى بطبقة من الشيكولاتة ، أو الفنضان الأحمر، والأخضر، والأصفر، والبرتقالي، يقول رشاد أفنـدي لا تنسَ(الشو) يا محمد–لا يصنع أحد(الشو) كما يصنعة أبي ، يقـول السر في الكريمة يا بني .

حول الشمعة البيضاء الكبيرة يرسم أبي الحـروف الإنجليزيـة **Happy Birth Day** يرسمها بالفنضان الأصفر المتوهج.

ظل الخواجة جورجي يكتب الأحرف الإنجليزية حتى اكتشـف براعة أبي في رسمها ، يقول أبي عيب ألاّ تنهي عملك وحدك وبيدك يـا بني .

بسبب حلويات أبي أدخلني رشاد أفندي مدرسته قبل السن القانونية ، حفظت المناهج حتى مللت من التكرار، المدرسات يتسامرن وأنا أقرأ الدرس ، أقول من رأسي لم أعد أنظر إلي الورق ، أقول وعقلي مع المدرسات يحكين نكات خارجة ويضحكن ، سمعت من أفواههن ألفاظا قبيحة لم أفهم معناها في وقتها ، تقول أبلة أزهار للتلاميذ بعد أن تجلسني على حجرها وتقبلني في شفتي أريد منكم أن تقرؤوا كما يقرأ العربي .

بيتها قريب من بيتنا ، أجمع الدفاتر من التلاميذ ، أجلس في البلكونة الخشبية الواسعة أمامي طبق الحلوى وكوب العصير ،أنظر إلي الشارع ثم تعود عيني إلي داخل البيت أراها وهى تتحرك أو تجلس إلي مكتبها تنظر في دفاترنا ، رائعة الجمال سمراء ، شعرها كستنائي ، يترجرج جسدها داخل القميص البصلي بلا أكمام ومفتوح الصدر، ذراعان متناغمان ، وصدر متفجر، تضبطني متلبسا بالنظر إلي لحمها المضيء تحت القماش الشفاف ، يحمر وجهي ، أنظر إلى الأرض في خجل وارتباك ، تضحك في خبث وتقوم ، تجلسني على حجرها وتقبلني في فمي ، ضربات خفيفة سريعة متنقلة ، ثم تطبق بشفتيها الكبيرتين الساخنتين ، لا تتركني إلا بعد أن أتلهّب و أذوق شهدها .

مع أبلة أزهار ترعرعت أحاسيسي الأولى بالنساء ، حتى عندما اكتمل إدراكي كانت أبلة أزهار هي النموذج الأساس .

يضحك عمي ونحن في السينما عندما أقول مارلين مونرو تشبه أبلة أزهار .

—هذه شقراء وأزهار سمراء أين وجه الشبه يا فاخ ؟

أخجل أن أقول له ، نفس الشفتين الساخنتين الممتلئتين بالدم ،.نفس التقاطيع الجميلة المتفتحة ، وتسريحة الشعر ، وهذه الرجرجة وهى تسير ، ونظرة العين الناعسة التي تزلزل الروح ، والصوت الذي يشبه الفحيح .

ربما لا تدرك أزهار أو ربما كانت تدرك ما تفعله بي في هذه السن المبكرة ، تنظر إليّ في الفصل وتضحك بلا سبب ، يحمر وجهي ، أغضي في خجل فتزداد ضحكا ، وظل هذا سرنا فترة طويلة.

مسكين والد (حسان) تسيل دموعي وأنا أراه يتزلق على قشرة الموز وتنكسر ساقه ، أدعو الله في سري أن يحفظ ساق أبي ، والولد الطماع أدخل يده في برطمان الحلوى ولم يستطع أن يخرجها و(القرد وبائع الطرابيش)، هذه القرود الشياطين المولعة بالتقليد .

قلت أريد أن اجلس جنب شريفة ، تقول أبلة أزهار أنت هنا في الأمام الألفة لا يجلس إلا في الأمام، يجلس الدكتور جنب شريفة ولد

طويل نحيف برموش مسلخة ونظرات شاردة، بربوره في طرف أنفه على الدوام .

تقول أبلة أزهار : (دكتور مرة واحدة، جتك نيلة ، قرفتني من الدكاترة ، كان لازم يسموك أبو بربور) .

أحسد الدكتور، لا أريد أن أكون ألفة الفصل أريد فقط أن أجلس بجوار شريفة ، تسللت إلى شغاف قلبي هي وهذا العلم الأخضر ذو الهلال والنجوم، ورائحة الكتب الجديدة وأقلام ألرصاص . والممحاة الكبيرة المربعة ، وعلبة الألوان . ولوح الإردواز، أتسلمها قبل بداية العام ، أضعها في حقيبتي القماش التي تشبه المخلاة الصغيرة ، في البيت أفردها على سريري وأظل أتشممها طوال اليوم، أقلب صفحاتها الصقيلة الملتصقة ، أتشمم حبر الطباعة الطازج، أدخل عالم الخيال الذي أنتظره من العام للعام .

كانت الابتدائية سنوات أربع ،على بخـتي رأت الثـورة أن تجعلها سنوات ست عجاف، كرهت نفسي من الملل، ومن تكرار المناهج التافهة ، ولولا حبي الشديد للكتب ،رائحتها ولشريفة ولأبي لفررت من المدرسة ، هل كان تفوقي من أجل شريفة ؟ لا أستطيع أن أجزم، ففـي هذا الوقت المبكر لم تكن حتى تنظر إلي فأنا الأصغر والأكثـر انطـواء، تمتعي بالحصانة بوصفي "ألفى" الفصل وهذه الرعاية الخاصة من رشـاد أفندي والمدرسات– في طابور الصباح يربت علي رأسي ويقول لا تنسَ أن تسلم على أبيك – كل ذلك جعل بيني وبين بقيه التلاميـذ حائطـا وهمياً زاده ارتفاعاً خجلي وشرودي، فسرهما التلاميذ غرورا وتعاليا، في الفسحة تلعب شريفة مع الأطفال، دائما أنا خارج دائرة نظرها ودائمـا هي في مركز رؤيتي، ومع الزمن بعدت أنا واقتربت هي حتى تلبّستني ..

توفيق بائع الحلوى يرتدي ملابس الكشافة ، الشورت الكاكي والمنديل الأحمر حول رقبته ، وعلى رأسه الباريه الصغير لا يكفي لحجب شعرة الغزير البني اللامع ، وجهه قمحي مضيء وعيناه تشـعان بالثقـة والإبداع .

قبل دخولنا في الصباح نلتف حوله في دائــرة كــبيرة يرســم بالطباشير الملون على الأرض ، لوحات رائعة مثل التي نراها في مجــلات الأطفال ، قصصاً مصورة نتابعها يوماً بعد يوم ، قبل دخولنــا الحــوش بدقائق ينتهي من الرسم يخرج مزماره يبتعد قليلا حتى لا تدهس أقــدامنا الصغيرة لوحته الجميلة ، نتجمع حوله في انتظار لعبة البخت، قــراطيس الحلوى المدببة مثل رأس الحربة والمغلّفة في ورق أبــيض ، مغــروس في منتصفها أعواد الخشب الرفيعة ، في كل عود الخيط المربوط بإحكــام ، ندفع المليم ونشد الخيط ، يقفز المحظوظون فرحا عندما تــتلألأ داخــل المخروط السكري الشفا ف العملة المعدنية البيضاء ، قرش مخروم ،أحيانا تعريفة مخرومة .

ارتبكت خطاي وأنا أتقدم نحو شريفة بالمخروط السحري يشع من داخلة القرش الأبيض المخروم ، وقفت قليلا تنظر إليّ صامتة ثم مدت يدها بسرعة ، وضعت الحلوى في فمها ثم مضت وهي تقفز مبتهجة نحــو شلتها الصغيرة، وأنا واقف في مكاني ، جامد مثل تمثال بشــري مــن الحجر.

قال أحمد شحاتة وهو يضع الثلج على رأسي ستقتل نفسك يا أهبل والله هي وأخواها السبع لا يساوين طرف إصبعك الصــغير، ألم يحك لك أخي عبد الحليم؟

يعرف عبد الحليم أسرار بنات شارعنا بنتا بنتا، يأتي إلى إمبابة في سيارة الوزارة السوداء الكبيرة ذات الستائر ، يتحدث إلي السائق ثم إلي عبد التواب الذي يقف مزهوا ينظر إلي جيرانه ولسان حاله يقول : هــؤلاء سكان بيتي هل يسكن في بيوتكم مثل سكاني؟ سمع عبد الحلــيم وزيــر الأوقاف في الراديو يقول أنا مدين لأستاذي ومثلي الأعلى الشــيخ شحاتة ، في اليوم التالي كان عبد الحليم في مكتبه أخذ العــزاء في أبيــه وأخذ أيضا لنفسه وظيفة كبيرة في مكتب وزير السد العالي ، ولأخيــه أحمد وظيفة مماثلة في الإدارة العامة لشركة (المقاولون العرب) ودخــل أخوه الأصغر الكلية الحربية ، بعد أن فشل أكثر من مــرة في دخولهــا. هذا البرنامج الإذاعي ، ليلة القدر لآل الشيخ شحاتة ، لم يتصور أحد وقتها أنه من الممكن أن يخرج من ظهر العالم أكثر من فاسد.

في القاهرة كلما رأى عبد الحليم فتاة جميلة تزوجهــا يقــول وهو يضحك فتيات حارة البكري أفسدنني لم تعد تملأ عيني إمرأة بعدهن

، لم احترم عبد الحليم أبدا ، كان يفضح البنات بشكل تأباه مروءة الرجل ، تنبهر الفتاه بشكله الوسيم ومركزه المرموق وسيارته السوداء الكبيرة وهذه النظرة الصادقة من عينيه الواسعتين ، ما أسرع تغرغرهما بالدمع وهو يضحك ، فما بالك في المواقف الدراما تيكية ، حسب تعبيره ، يتلذذ عبد الحليم وهو يقص علينا قصته ، من النظرة الأولى وحتى وقوع الفتاة في براثن شبكته العنكبوتية، يقول في ثقة لا توجد امرأة على الأرض تستعصي على عبد الحليم .

أتعجب من قدره الله الذي وضع كل هذا الشر في هذا الوجه الملائكي .

بعد قليل تراه على حقيقته ، فيطلقها إن سارت الأمور بلا مشاكل وكانت بنت ناس ، وأحيانا لا يخلو الأمر من قضايا ومطالبات مالية لم يدفعها أبدا، أصبح خبيرا في مثل هذه القضايا ، يقول أحمد شحاتة : عبد الحليم غاوي مشاكل ، (النسوان ملقحة على قفا من يشيل ، يعني لازم الجواز؟)

يقول عبد الحليم :اخرس يا زناوي يا كلب والله خسارة فيك اسم الشيخ شحاتة .

أخيرا جاءت القصيدة ، قرأتها على شحاتة والبلاسي وعرنوس إذا قرأت الشعر وضحك شحاتة اضربة بأقرب شيء إلى يدي. قصيدة طويلة قلت في آخرها :

سأحارب نفسي في نفسي
ويطارد نومي أحلامه
وأمزق قلبي يا قلبي
واكسر في الصدر سهامه
قد أصبح إنسانا آخر
والدنيا قد تعرف قدري
قد أصبح شيئا مذكورا
لا تسخر مني من يدرى
فلعلي إن حان خلاصي
وأتاني قدري يا قدري
استل غرامك من قلبي

أطـعنـه و أمزق صدري

فـغرامي مطرود يـشقـى

و غرامك يحـفظه قلبـي

وذنـوب الـنـاس خطايـا هم

وذنـوبـي قـلـب فـي جنـبـي

قال عرنوس الله يا ابو عرب قصيدة جميلة، وابتسم البلاســـي ولم يعلق كعادته، قام شحاتة قبل نهاية القصيدة وهو يضع يده على فمه ، أغلق حجرته بالمفتاح ، وجاء صوته من بعيد،لازم تـــروح لـــدكتور ، أكيد نهايتك مثل مجنون ليلى، تسير عريانا في الشارع والعيال يحـــدفوك بالطوب ويقولون مجنون شريفة،مجنون شريفة.

في كل مرة أندم على قراءة شعري أمام شحاتة ، أقول صحيح لا تلق بالدرِ أمام الخنازير، وفي كل مرة أيضا لا أستطيع أن أصبر علـــى القصيدة، أنادى عم مسعد بالليل أو بالنهار يستمع ويتذوق ويقول رأيه الذكي ، كسر غروري هذا الرجل بشعره الشعبي، أول مرة أتعرف على عبقرية ابن عروس وغيرة من فم هذا الرجل الحفاظة .

أصل الـحكـايـة ريـال بـعشريـن

لاأحلـف ولا تـحلـفـونـي

عمدة بـلـدكم قـلـيـل ديـن

جاب الـغفـر كتـفـونـي

* * * *

ميـن د اد اك د اديـه
واجعل عيالك عبيـد ه
ومين عاد اك عاديـه
دي روحك مش ف ايـد ه

* * * *

ضربت كفى بكفي
ما عاد باليد حيلة
أم الفلافل تكفي
اللي قروشه قليلة

* * * *

عرقوبها يدبح الطير
وبوزها بوز الحدادي

واللي أناها ما شافش خير
يا طول شماتة الاعادي

تسعفه ذاكرته دائما بالشعر المناسب لكل موقف

في هذه الليلة قال:

من حبنا حبناه
وصار متاعنا متاعه
ومن كرهنا كرهناه
يحرم علينا اجتماعه

حتى أنت يا عم مسعد!!

ثم يقوم وهو يتثاءب ، أسيبك تنام بكرة عندك كلية ......

في الليل أرى عبد الحليم مرتديا الجلباب الصعيدي وله شنب كبير يضربني بالنبوت ويقول: أنا ابن عروس قم وبارزني رجلا لرجل، أقوم من نومي مفزوعا ، وأظل مستيقظا حتى الصباح.

يستند إلى شكائر الرمل التي تسدّ فتحات الحوض العائم حتى منتصفها تقريبا ، وضع سلاحه في وضع الاستعداد ينتظر هدفا لا يجيء ، يمسح عن عينيه بخار اليود المملح وذرات الرمل والدموع ، وجهه محمص وجلده ساخن ومتفحم ، منذ أقل من شهر كان يقف على سطوح بيت عبد التواب في امبابة ومعه البلاسي يراجعان الدروس ، فالأيام امتحانات ، أول امتحانات لهما في الجامعة ، وكان معهما أيضا عرنوس و شحاتة ، عرنوس بالفانلة يتدرب بكوز الإسمنت ، مستعرضا جسده الجميل و شحاتة وحده يعاكس فتيات الشارع ، العجيب أننا لم نكن نعرف أن هذا المكان الجميل الشبيه ببيوتنا يملكه عمال الترسانة البحرية ، لم نتخيل أنه يمكن أن تكون في القاهرة ترسانة بحرية ، أسسها محمد علي لبناء أسطول غزا به العالم ، الأوْروبيون البرابرة تكالبوا عليه ، حرمونا من فرصة نادرة لقيادة الكون ،هو أيضا أخطأ في موقف لا يحتمل الخطأ ، ليته سمع كلام ابنه إبراهيم. خشي محمد علي أن يذكر التاريخ أنه أسقط الخلافة الإسلامية ، وهى ساقطة ساقطة ، ألسنا أولى من الغزاة الكفرة ، (وكان جحا أولى بلحم طوره) ، أكلوا الثور ثم ثنوا بالنعاج ، صوت عبد الوهاب في الراديو الترانزستور ، بعده بقليل صوت أحمد

سعيد يجلجل أسقطنا خمسين طائرة إسرائيلية ، قواتنا على مشارف تــل أبيب ، قفز عرنوس في الهواء ، كاد يسقط من فوق السطوح لولا لطف الله ، تركنا الكتب والامتحانات ،وأتينا إلى بورسعيد ، الامتحان ينتظــر ولكن دخول تل أبيب حدث لا يتكرر ، قضينا الليــل في القطــار ، في معسكر الجلاء في الإسماعيلية ، الكشافات تملأ السماء والقنابل تفرقــع ، أتى الصباح وتحرك القطار بالجرحى إلى بورسعيد ، كل شيء يهــون في سبيل تحرير فلسطين ، تجمع الطلبة الجامعيون في المعهد العالي التجــاري أمام حديقة سعد زغلول ، في الليل أحضروا صناديق الأسلحة ، بنــادق نصف آلية جديدة بشحمها عليها التاج الملكي ، مكتوب تحته الحــرس الملكي ، على ضوء الشموع غسلنا السلاح بالجاز وجففنــاه بملابســنا وانتظرنا ، يوم اثنان ثلاثة ثم أتتنا الأيام الحزينة ، قلنا نريد أن نحــارب ، أخذونا إلى ترعة الإسماعيلية ، أصابها العدو بقنابله ولا بــد مــن رأب الصدع قبل الصباح حتى لا يشعر الناس بقلة مــاء الشــرب فيصــابوا بالذعر ، تسلخت أيدينا من الطين وشكائر الرمل ، عدنا وقــد هــدنا الإعياء الكامل ، فهمنا الآن لماذا ثار عرابي على السـخرة في الجــيش ، وانتظرنا ، قالوا سلموا أسلحتكم ، رفضنا قال الضابط لو كنتم جنــودا نظاميين لضربناكم بالنار ، الريس بنفسه يتابع أخبــاركم ، ســنلحقكم بفرق التدريب العسكري حتى نجهزكم للقتال وبعدها لنا معكم شــأن

آخر، في نادى المعارف بجوار الثانوية العسكرية تدربنا على السقطة الأمامية والسقطة الجانبية والالتحام ، والقتال بالسلاح الأبيض ، وفرقة المتفجرات ، والحرب الكيماوية والصاعقة والآر ب ج ، يدربنا عسكريون متخصصون على أعلى مستوى من الضابط إلى أقل رتبة عسكرية ،لماذا لم يشترك هؤلاء في الحرب ؟، بعد أن أعطونا بنادق آلية روسية جديدة ، وقف المسئول الكبير يخطب فينا : إنه واجب قومي كبير أن تحملوا شرف حراسة الترسانة البحرية — الترسانة البحرية (تاني) يبدو أن كل مصائب مصر في الترسانة البحرية — إنكم تحرسون أكثر من مائتي مليون جنيه من عرق الشعب المصري ودمه ، أوشكت أن أقول له إننا لم نترك الجامعة لنحرس مائتي مليون جنيه من عرق الشعب المصري ودمه ، جئنا لنقاتل وندخل تل أبيب مع الداخلين ، لقد كاد عرنوس يموت وهو يصيح سندخل تل أبيب سندخل تل أبيب .

تقع الترسانة البحرية في مدخل القناة ، على ضفتها الشرقية ، أول ما تراه السفينة القادمة من البحر ، أوناش عملاقة ثابتة وأوناش صغيرة متحركة على عجلات ضخمة قياسا إلى حجمها ، في مقدمها شوكتان من الصلب كسني فيل وعنابر مثل خلية النحل هي الآن ملاعب للريح والصمت ، فقط صوت الماء الذي يرتطم أسفل هذا الحوض العائم في رتابة مملة تدفع إلى الجنون ، حتى الماء لم يعد هو الماء ، أصبح نظيفا جدا ورائقا على غير العادة ، خال من الحياة ، جثة مائية ممددة ، هو نفسه " لم يعد الشخص الذي كان قبل الخامس من يونيو ، اهتزت كل الثوابت ، صحا من نومه فجأة وجد نفسه شخصا آخر ، أفاق على الحقيقة المفزعة ، في من يثق ؟ صوت أحمد سعيد يدوي في رأسه كابوس فظيع ، ليس له ملاذ الآن سوى هذه البندقية الآلية هل تكفى حجم الخوف والغضب الذي يغلي في عروقه كيف خدرونا كل هذا الوقت ، ممن ينتقم وبمن يبدأ ، تطفو الشمندورة بكاملها فوق سطح الماء مستسلمة كزورق فقد مجدافيه ، حلقتها فارغة من الحبل الضخم الطويل يشدها إلى الماء وتظل تصارعه طوال الوقت ، وفلايك البمبوطية الصغيرة ذات المجدافين ، وبضائعهم العجيبة ، وكلامهم الذي لا يشبه

الكلام ، مزيج من كل اللغات وأياديهم التي تتكلم قبـــل ألســـنتهم ، فقط الفراغ وهذه النوارس التي تحوم في تكاسل مريب • أول طلقـــة ثم تتوالى الطلقات ، إنهم الزملاء يقتلون ا لوقت بالرصاص ، يطلقون على تلك النوارس المسكينة ، لم يشترك أبدا في هذا القتل الرخيص ، هاجسه الذي يطارده هو أن يخالف الأوامر ويطلق على تلك الطائرات الرماديـــة الشوهاء . تأتي من الجنوب ، تتسحب على سطح الماء وبطول القنـــاة ثم تميل فجأة على جانبها الأيمن متجهة إلى الشرق ، لقد فعلها عمه في ستة وخمسين ولم يسقط طائرة واحدة ، ولكنه فعلها ، هم أيضا أحرقوا المناخ كله ولم يصلوا إليه ، إنها قصته التي لا يزال يحيا بها ، ولكنـــها الترســـانة البحرية أكثر من مائتي مليون جنيه من عرق الشعب المصري ودمه ، قال الضابط وهو ينظر في انكسار إلى الطائرة الرمادية المتسحبة على ســـطح الماء : البندقية لا تسقط الطائرة ، لا تســـقط الطـــائرة إلا الطـــائرة أو الصاروخ ، هذا ظلم لا يقبله إنسان ، كيف لهذه الكلاب تلغو في مائنا ، لابد من وسيلة •

إذا رأيت ضفدعا بشريا كن حذرا في تعاملك معه ، لا تمنحـــه الفرصة أن يستريح ، هو مدرب تدريبا عاليا على القتل السريع ، قنابل الأعماق مضادة للضفادع البشرية ، ألقينا قنابل كثيرة ولم نـــر ضـــفدعا بشريا واحدا ، فقط هذه الجزرة البشعة للأسماك يأخذ الـــزملاء بعضـــها

يشونه على الحطب ويأكلون ، انتبه للأمر ضـــابط كـــبير ســـكندري . يضعها في صناديق خشبية مع الثلج ويسافر بها ، مع الوقت تألمت لمشهد السمك المختنق قلت سأخبر جمال عبد الناصر ، اصفر وجه الضـــابط ، أصبح استخدامنا للقنابل وقت الحاجة وفيما خصصـــت لــه ، لا أدرى كيف جاءت الكلمات على لساني .

في وقت الراحة خلعت ملابسي ، وألقيت بنفسي في المـــاء ، سبحت حتى وصلت إلى اللسان الصخري الرفيع الممتد في اتجاه الشمال نحو البحر ، أسير بحذر فوق الصخور الملساء ،أخرجت من فمي الخـــيط الذي ربطت في طرفه ما يشبه السنارة ، ألقيته بين الصـــخور المغمـــورة بالماء ، كما توقعت تماما المكان مليء بهذه السمكة السوداء ذات الرأس البشع ، تبتلع أي شيء يلمع ، أضع السمكة في الكـــيس المربـــوط في وسطي ثم ألقي الخيط في الماء ، وجدت الضابط الشاب بجانبي – كيف تصطاد بلا طعم ؟ – سمكة غبية ولكنها لذيذة ، تعيش فقط في جحورها بين الصخور ، ولا تغادرها أبدا ، – ألا تفكر في الضـــفدع البشـــرى وأنت في هذا المكان المقطوع – ليته يأتي فأقتله وأســـتريح أو يقـــتلني فأستريح ، الموت أفضل من هذا الانتظار الســـخيف – إنمـــا الحـــرب والأكثر تحمـــــــلا هو الذي يفوز في النهاية ، هيا لنجرب طعم هـــذا السمك الأسود ، هل أنت متأكد أنه غير سام ولن يقتلنا .

كان صباحا مشرقا عندما أخبرنا الضابط أننا سنخرج في مهمة قتالية جنوب بورفؤاد عند الملاحات ، حفرنا الخنادق الخلفية وانتظرنا ، أمامنا الضباط والجنود من فرقة الآر ب ج ، انتظروا حتى دخل القول الإسرائيلي إلى المدق الوحيد المؤدي إلى المدينة ، في وقت واحد انفجرت الدبابة الأولى والدبابة الأخيرة وبدأت المتعة الحقيقية ، أحلى صوت في الدنيا صوت ارتطام الصاروخ بالدبابة الإسرائيلية ، إنهم يتساقطون كالذباب ، من يخرج عن المدق ينغرس في الأرض المالحة كذبابة تتخبط في طبق من العسل ، وقعوا في المصيدة ولم يعاودوا المحاولة بعدها أبدا .

كنت أوزع وقتي بين الصيد وبين الحراسة التي لم أقتنع بها أبدا — ومع ذلك أنفذها بأمانة — وبين النوم في مكان حراستي على لوح خشبي وجدته فوق شوكتي أحد الأوناش الصغيرة ، أسند اللوح الخشبي بجوار فتحة الحوض العائم وأبدأ التدريب بقذف السونكي ، الضفدع البشري يجيد القتل بالسونكي ، زدت المسافة مع الوقت ، وجدت في الأمر تسلية كبيرة ، يطير النصل في الهواء محدثا هذه الرفة الخفيفة ، وبعد أن يلف عدة لفات ينغرس في الخشب بصوت مكتوم ، مرة اصطدم النصل عرضيا بصفحة اللوح الخشبي ، قفز إلى الماء وأنا وراءه ، المسافة

ثابتة بيني وبين هذا النصل اللامع الذي يقودني إلى الموت ، صــوت أبي اعمل حساب الصعود ، تركت النصل اللامع ولم يبق مــن نفســي إلا القليل ، صوت أبي لا تغلق عينيك في الماء، الماء فوقي قسمان ، قســم شفاف كبلور يترجرج ، تنحل فيه الشمس خيوطا قزحية ، وقسم معتم صفيق ، عدلت وضعي في اتجاه الضوء ، واحتاج ذلك مني إلى مزيد من النفس ، خلا صدري تماما من الهواء ، الثواني دهور ، والمــوت قــاب قوسين أو هو أدنى ، وبلغت الروح الحلقوم •

قال الغواص العجوز لا يفعل ما فعلت إلا مجنون ، ولا ينجو مما فعلت سوى محظوظ قلبه بارد ، لو خفت لهلكت ، لا أرض تحت هــذا الحوض العائم فقط حائطان اسمنتيان يستمران في الميل ، يلتقيــان علــى عمق أكثر من خمسين مترا ، حتى نحن و ببدلة الغوص الحديدية الثقيلــة ذات الخرطوم لا نستطيع أن نتحمل هذا العامود الثقيــل مــن المــاء . أشكرك يا أبي صوتك أنقذ حياتي ، فعلها حسين الضبع زين شباب كلية الآداب ، مات غرقا تحت عوامة الجامعة أمام فندق شيراتون الذي كــان وقتها تحت التأسيس ، رأيت الضبع أول مرة في معسكر الجوالة ، كــان معنا توفيق عبد العظيم وحمدي كيرة وسامي صلاح ومحمــد الشــهاوي وشوقي ومحمد حاكم وعلاء حمروش وإبراهيم النمس وعبده قاسم وعلى وفاطمة ، أسماء كثيرة لشباب مثل سنابل القمح ، يومها قال لي قابلني في

نادي تجديف الجامعة ، ذهبت إلى هذه العوامة الخضراء الكـــبيرة أمـــام شيراتون ، قلت له هذه المركب لا تشبه المراكب الرفيعة المرصوصة على الأرفف بطول العوامة ،قال تركب المدرسة أولا ثم "اليول" وبعد شـــهر تقريبا تركب هذه المراكب الرفيعة "آوت ريجر " ، بضعة أيـــام وكنـــت بجانبه في المركب الرفيعة ، قلت له من أين لك بهذا الجسد الجميل ، قال إنه التجديف ولا شئ غير التجديف ، الرياضة الوحيدة التي تحرك كـــل عضلة في جسمك ولا تنسَ ، القوة هي الأساس والشكل يأتي مع الوقت ، يتكلم عن التجديف كما يتكلم عن فتاة رائعة يعشقها . يدربنا الكابتن بسطامي هذا النحيف القليل "باريز" مصر ، مثل الجوكي في سباق الخيل ، به يفوز المركب أو يخسر السباق ، بعد تدريبات الإحماء علـــى الأرض ننزل للتسخين في الماء، ندور حول جزيرة المنيل في مركب هي الأثقل من بين مراكب النادي كلها ثم نلف حول الجزيرة الكبيرة من تحت كوبري إمبابة في الشمال بمركب السباق الأساسية ، أرتدي ملابسي بعد الدش الساخن ، أخرج من النادي بلا جسد ، أشعر أنني ريشة تطير في الهواء ، في إحدى المرات خرجت من النادي ركبت ترولـــي أربعـــة وأربعـــين الذاهب إلى إمبابة ، بعد أن أخذ الترولي سرعته خطـــف الواقـــف إلى جواري ساعتي وقفز من الترولي وأنا وراءه لم يصدق عينيه عندما رآني فوق كتفيه ، مد يده بالساعة واستمر يجرى وهو ينظر خلفه كالذي يرى

عفريتا . ساعة أبي تل قديمة ذات ميناء بيضاء باهتـــة ، يفتحهـــا أمـــامي ويقول ماكينة أصلية مثل الألماز ثم يغلق الغطاء الفضي الذي يبرق مـــن الداخل في دوائر صغيرة مثل النجوم ، لولا أني أعلم مدى حب أبي لهـــا لألقيتها في النيل واسترحت ، في إحدى المرات سقطت مني وأنا أقـــف على الأزأ قبل الترول إلى المركب ، سقطت بين الشقوق فرحت ساعتها قلت جاءت من عند الله ، نزلت إلى المركب وما أن عدلت جسمي حتى رأيتها تتلألأ أمامي فوق الفنطاس الحديدي الذي يحمل العوامة كلـــها ، مددت يدي و أخذتها وأنا أضحك ، هذا الفنطاس الحديدي الكبير هـــو الذي مات تحته حسين الضبع زين شباب الكلية ، فزنا يومهـــا بســـباق الجمهورية ،هزمنا فريق الشرطة منافسنا التقليدي ، كنا نضحك و نحـــن نرى الجنود عابسين يعرفون ماذا ينتظرهم على يد الضباط في حالة الهزيمة ، قفزنا إلى الماء ابتهاجاً بالنصر ، خرجنا ولم يخرج حسين الضبع ، نخلنـــا النيل كله حتى كوبري إمبابة القديم لم نجده ،وجدناه بعد ذلك عالقاً تحت هذا الفنطاس اللعين، بكى معنا الجنود حزناً على الضبع ، أيهـــا المـــوت كيف تختار فرائسك؟!

لم نعد نطيق الاحتباس ، في نوبة من نوبات هياجه قال رجـــب للضابط : الرجال يموتون ولا يفرون من مواجهة الأعداء ، هبط الصمت على الجميع تحول الهواء إلى زجاج بارد، سلم الضابط سلاحه للرقيب و أمر رجب أن يفعل مثله ، وتضارب الرجلان بالأيدي رغم ذهول الجميع ، حوّمت الطائرات الإسرائيلية على الموقع ، في لحظة عـــاد الضـــابط ضابطا أخذ سلاحه وأمر الجميع بالانتشار ، بعد الغارة بحث الرجلان عن بعضهما وتعانقا وسط الدموع ، هل ذاق أحد مرارة الانكسار مثلنا •

هكذا رجب دائم الانفعال ومنفلت اللسان رغم قلبه الأبـــيض وجسده الضخم لا يفهم معنى للانتظار ، الأعداء في سيناء وهو مـــا زال حيا وواجب الأحياء أن يثأروا لموتاهم •

وجدوها فرصة للسيطرة علينا ، الأكثر التزاما وتفوقا في التدريب يخرج إلى سيناء في فرق صغيرة ، نرتدي ملابس الصـــيادين نبحـــر معهـــم في مراكبهم الصغيرة ، نترل إلى الشاطئ نحضر أسلحة القتلـــى ومتعلقـــاقم الشخصية ، بعد أن نقوم بدفنهم ، لم نتألم من رؤية الموتى رؤية الأحيـــاء أشد قسوة وعذابا ، شباب مصر فلذات كبدها جلود مســـلخة أقـــدام متورمة تنز بالقروح وعيون ذاهلة منطفئة ، تركونا في العراء ، الأوامـــر

متضاربة حتى عندما تأكد أمر الانسحاب لم نصدق . لماذا إذن عبرنا بهذا العدد الكبير إنها جريمة، بل خيانة عظمى ، من يدفع الثمن ؟، الطيارون اليهود يلعبون مع أبنائنا لعبة القط والفأر يقتلونهم دهسا ورعبا وكذلك تفعل دباباتهم ، حتى في ظل هذا التفوق الكاسح لم يقابلونا رجلا لرجل ، إننا لم نحارب لقد .وقعنا في شرك كبير لا يمكن أن تغفر مصر لمن تسبب في هذا .

كنا نغلي بالرغبة في الثأر ،– لا تتحرر الأوطان بالرغبات وإنما بالتدريب الجيد والصبر ، ثم إنه ثأرنا نحن قبل أن يكون ثأر أي مصري آخر ، وأقسم بالله العظيم إننا قادرون عليه ،قال الضابط وهو يسير خلفي حذرا فوق الصخور الزلقة – بعد كل الذي رأينا في سيناء هل تنتظر من أحد أن يصدقك ، قبض على يدي بقوة قال – أنت أولى أن تصدقني ، يجب أن تصدقني ثم صمت والتفت إلى الماء الأزرق الصافي الذي يترجرج بين الصخور قال كيف تضع هذا الجمبري اللعين في السنارة ، قلت ابدأ من الذيل وستجد الرأس على السن ، السمكة هدفها الرأس ، هل قرأت ما قال ابن خلدون ، الأمم كالسمك تفسد من رؤوسها يا صديقي ، – هذا كلام خطير يا بشروش .

جلست بجانب الريس مصطفى على اللوح الخشبي العريض ، أمسكت بالمجداف ، الصمت يلف الجميع ، جلس رجب في مقدمة

الفلوكة مستنداً إلى كومة الغزل وقد وضع كفه فوق جبينه ينظر في السماء يرقب الطائرات والعباسي خلفنا يهتز في رتابة كمن يركب جملا، ما إن اقتربنا من البر حتى قفز إلى الماء يدفع معنا المركب فوق الرمال البيضاء ، نفس الرمل نفس الماء ، لماذا أرتعد كلما لمست قدمي هذه الأرض ؟ – إيه يا رجل ، أنا أنادى عليك ، أترك الشعر الآن ، لا وقت لدينا ، انتبه جيدا ، قال رجب وهو يشد خطوته – سأذهب في هذا الاتجاه ومعي العباسي ، وأنت والريس مصطفى في هذا الاتجاه ، الأوامر أن نعود بسرعة – بدؤا يرصدون هذه الفلايك الصغيرة في طلعاتها المتكررة ، في البداية لم تكن الطائرات تلتفت إلينا في ذهابها وإيابها بالأمس حومت فوقنا واحدة ، أخذت وضع الهجوم ثم أطلقت رصاصها ، سقطت دفعة الفيكرز جميعها في الماء ، قال الريس مصطفى ربما أراد هذا الكلب أن يتسلى ، قال الضابط – أو ربما بدؤا ينتبهون إليكم كونوا على حذر •

– ابن من من الصيادين يا بنى؟

– ابنك يا ريس مصطفى•

– صحيح ابن من أنا لم أرك في البحر من قبل •

– أبي حلواني يا ريس مصطفى •

– سبحان الله ظننتك واحدا منا •

– أنا منكم يا ريس مصطفى خالي له مركب كبيرة في البحيرة .

في البداية كان الأحياء يدفنون الموتى ويجمعون سلاحهم ومتعلقاتهم حتى لو بقي واحد فقط يقوم بالأمر وحده ، لا يتكلمون ، فقط يومئون برؤوسهم المشعثة ، وجوههم التي حرقتها الشمس جامدة متشابهة ، لم أر أبداً فرحة النجاة في أي وجه ، بعد أن يأكل ويشرب يجلس مطأطئ الرأس ينظر في قاع القارب ويظل صامتا حتى نصل ، مركز التجمع مدرسة الفتح الابتدائية فيها أخواتنا سعاد الخميسي وأحلام الألفي وفاتن و فاطمة وزينب فتيات في عمر الزهور يقمن بتنظيفهم وتضميد جراحهم ، يستبدلون ملابسهم ، بعد يومين أو ثلاثة تعود لهم وجوههم ، يسافرون إلى قراهم ومدنهم .

قالت أختي سعاد : صدقني يا آخي لا أتذكر أي وجه منهم ، أراكم فيهم أنت والعباسي ورجب وعبد السلام لو رأيت واحداً منهم في الطريق لن أعرفه .

قلت لها: وماذا في ذلك لقد رأيت نفسي في كل شخص دفنته في سيناء إنني ميت يسير على قدمين ولن تهدأ روحي حتى أثأر لشهدائنا، أو أعود إلي قبرى هناك في سيناء .

منكفئا على وجهه في الرمل دمه لا يزال طازجا .

– قال رجب : أين سلاحه ؟

– ليس معه سلاح •
– السلاح موجود ابحثوا في المنطقة، لا توجد سوى آثار قدميه •

نظرت إليه ، قبضته اليمنى منقبضة في تشنج قريبا من وجهه الذي اختفى نصفه الأيسر في الرمال ، يده اليسرى مختفية بكاملها تحت جسده الضخم عندما عدلناه وجدنا يسراه تحتضن السلاح في صدره ، في وقت واحد نظرنا إلى قبضته اليمنى •

– قلت : نأخذ السلاح وندفنه كما هو •
– قال العباسي نرى ما في قبضته أولا ربما نجد شيئا هاما •

أخرجنا الصورة الصغيرة بحذر من بين أصابعه المتشنجة ، فتاة ريفية شابة ، آخر شئ رآه قبل نومته الأخيرة ، لا أتذكر من بكى أولا ، انفجرنا مرة واحدة وفى وقت واحد ، ربما رأى كل واحد منا نفسه في هذا المسجى ، رأى حبيبته، وطنه في هذه الورقة الصغيرة، احتواها في قبضته الكبيرة يحميها من الموت ، من الأعداء ، رسالة واضحة وطنكم عرضكم ، خذوا بثأري ، لا تقعوا في هذه الورطة مرة أخرى •

ما إن استقرت المركب فوق سطح الماء في الغاطس خلف الأمواج حتى صرخ رجب هذه الطائرة ستطلق علينا ، دارت الطائرة فوقنا دورة كاملة قبل أن تأخذ وضع الهجوم • انفجر الدم الأحمر في وجهي مثل نافورة حمراء ، احتضن العباسي الريس مصطفى ، ربط ذراعه

تحت الإبط بحبل قديم من حبال الصيد ، ارتعشت عندما لمست كفي الكف المبتورة ، التقطها من بين أقدامي ، خلع رجب قميصه لفها فيه واحتضنها و هو يرجف كطائر فزع ، الوحيد الذي ظل مطمئنا وهادئا هوالريس مصطفى كان يطمئننا ويهدئ من روعنا و يشجعني وقد جلست بين المجدافين .

إنها النار التي أحرقتني عند شاطئ البحيرة الجنوبي تحرق الآن كل ذرة في بدني ، بدأت بذراعي ثم اشتملت جسدي كله ، اللحظة الحرجة التي عرفتها في الملاحات ، أين لسع النار ، توقف الإحساس بالألم إلا من تلك الرجفة عند ملامسة الكف الطرية المخضبة .

كفايَ مضغتان من اللحم والدم، دمي ودم الريس مصطفى.

في البداية اقترب عدد كتيبة الجامعيين من المائة مـع الوقـت بدأت في التقلص، الأكثر حماسا والأعلى صوتا وتشنجا هو الأسرع في تسليم البطاطين، كل أسبوع تقريبا من حق أي فرد أن يسلم سلاحه في السلاحليك ويأخذ تصريحا لساعات ، يزور أهلـه ويعـود، إذا سـلم البطاطين مع السلاح نضحك ، نعلم انه تصريح بلا عودة.

قلت لصديقي الضابط : لماذا لا تأخذ تصريحا وتزور أهلك في الشرقية ؟

قال سأزورهم إن شاء الله بعد النصر، الحرب لم تنته يـاأخي، ركبنا اللنش الصغير،عبرنا القناة ، سرنا في الشوارع الخالية، بعض الناس تتجمع أمام محل(أبو سمرة) لشراء الطعمية المشهورة ولتبادل الأحاديـث والأخبار .

قال واحد بصوت عال : (نفسي أعرف الجاسوس ابن الكلب اللي بيبلغهم بالأخبار ، نحرقه كما حرقناه في ٥٦) .

كانت الإذاعة الإسرائيلية تشن حربها النفسية علـى المدينـة ذكروا محل (أبو سمرة) وبعض ما يتكلم فيه الناس. حينما دخلنا البيت قالت أمي قلبي كان حاسس أنك ستأتي اليوم، وجهها أبـيض يشـع بالفرح، رفض الضابط في البداية أن يضع اللحم الأبيض الشهي في فمه

قال ما هذا الذي تأكلونه، كابوريا الحجر الخضــراء بشــكلها البشــع ورائحتها التي تخطف روحي- يا رجل لا تحكم على الأشياء من ظاهرها جرب وأنت تعرف، احتفى أهلي بالضيف،حملنا طعامــا كــثيرا ونحــن عائدين إلى الترسانة، قال الضابط هل تعلم أن أمك تشبه أمــي تمامــا ، نفس الشكل والكلام، حينما قبلتني أحسست أنني في حضن أمــي ، ثم صمت وقال لقد وعدتما أن أعود بالنصر، تحشرج الصوت ثم انقطــع، سرنا فترة طويلة ونحن صامتين، وجدنا اللنش في انتظارنا، تحركنــا نحــو الضفة الأخرى، التوتر يسود المكان وجوه غريبة نراها لأول مرة ترافقنا، ونحن متجهين إلى السلاحليك قال الضابط الأسطول الروسي في القنــاة ستراه من موقعك. قبل أيام أغرقت زوارق الطوربيد المصــرية المــدمرة الإسرائيلية إيلات ، كانت مياهنا الإقليمية في تلــك الأيــام مســرحا لعمليات حربية ناجحة لقواتنا البحرية، الضــفادع البشــرية المصــرية وصلت إلي أرض العدو ، بدأت حرب الاستنزاف ، بقدر ما كنا نسترد من معنوياتنا كان العدو يفقد توازنه وثقته بنفسه ، قلت في غضب هــل جاؤا لاحتلالنا، قال جاؤا لمساعدتنا، قلت بل جــاؤا لتهدئــة الموقــف وتكتيف أيدينا وسرقة انتصارنا، لا فرق بين روسيا وأمريكا، لن تتحــرر الأرض إلا بسواعد أبنائها ، أمريكا تزود إسرائيل بالســلاح ، روســيا تزودهم بالبشر وهذا في رأيي أخطر من السلاح .

القطع الحربية الروسية حوائط رمادية عالية تسد النور أمـــامي، تجثم بثقلها على قلبي .

حينما انطلقت الرصاصات نحو الأسطول الروسي قامت الدنيا ولم تقعد ، الكشافات حولت موقعي إلى نهار، قنابل الأعماق تمزق الميـــاه من حولي، جاء الضابط مسرعا قال بُلْ في ماسورة البندقية، البول يزيـــل اثر البارود ثم مضى مسرعا، الوجوه الغريبة تتشمم سلاحي ، يذهبون ثم يعودون، قال كبيرهم الرصاصات انطلقت من هنا نحن نعرف، هل رأيت أحدا من زملائك قريبا من هذا المكان ، فيما بعد قالوا : قل لنـــا مـــن أشار عليك أن تبول في البندقية، قلت ما هذا القرف أبول في بنـــدقيتي!! ولماذا ؟

ظلت علاقتي بصديقي عادية حتى لا نلفت الأنظار، قلت لـــه ليس لي أخ من أبي وأمي ، أشعر أنك هذا الأخ روحا ودمـــا، ضـــحك وقال: أخي الصغير صورة منك شكلاً وأفكاراً.

لم أره بعد ذلك رأيته بعد أكثر من عام في القناطر الخيرية.

أصرّ زميلي في الكلية (سامي الطّباخ) أن يستضيفني في منزله في القناطر، لم أوافق إلا بعد أن قال سترى استراحة الرئيس وربما تـــراه شخصيا، بيت سامي في الضفة الأخرى للنيل ، تماما في مواجهة استراحة جمال عبد الناصر، وضعنا الكتب ثم خرجنا نتمشى فوق القنـــاطر الـــتي

بناها محمد علي، الحجر القديم والبوابات الحديدية وآلاتها الصدئة والليل والهواء العليل والنيل ينساب تحتنا قويا وصامتا وحزينا، نغني أغاني أم كلثوم بصوت واحد حتى وصلنا الضفة الأخرى، مساء الخير يا سامي تفضل صاح واحد من الحرس، جلسنا وشربنا الشاي ، ونحن عائدين لم نتبادل كلمة واحدة قطعنا القناطر الخيرية صامتين ... هنا يعيش جمال عبد الناصر، وهؤلاء حرسه يرونه ويتكلمون معه ويعرفون سامي الطباخ ، يرحبون به ويضيوفه ، يا بختك يا سامي .

في هذا الوقت بالذات رأيته على رأس الجسر، مين؟ البشبروش ؟ حضرة الضابط ؟ أين أنت يا رجل ؟ ، ما الذي أتى بك إلى هنا !! مكانك في الجبهة، اطمئن مصر كلها جبهة ، كل الأماكن تؤدى إلى سيناء، وجهه مشرق وسعيد، عرفت فيما بعد، قريبا من هذا المكان كان الجيش المصري يتدرب على عبور القناة ، يتدربون على الخطة العسكرية (جرانيت) ، وضعها جمال عبد الناصر بنفسه ، نفذها الرجال في أكتوبر ثلاثة وسبعين .

قال عم مسعد البلاسي : إقامتي مؤقتة ، المدينة تهجّر إجباريا ، بدءوا بأصحاب المهن الحرة، لو خيرت بين الموت ومغادرة بورسعيد لاخترت الموت ، ولكنها الأوامر المشددة.

قال عم عبد التواب : أنتم على راسي ، ولكن ما الهدف من تهجير الناس بهذا الشكل السريع ؟

هذه المدن في مرمى المدافع الإسرائيلية ، لا يريدون أن نصبح رهينة في أيديهم ، ثم إن خط القنال كله مليء بالجيش إنه خط القتال الأول الآن ، سأشترى بيتاً في المنطقة حاول أن تساعدني على إيجاد بيت مناسب ، إقامتي عندكم مؤقتة .

تكدست العائلة كلها في الحجرة الكبيرة المطلة على الشارع ، بينها وبين حجرتي حجرة أحمد شحاتة الصغيرة ، شباك حجرتي يطل على المطبخ وهى الأقرب إلى الحمام وأنا بطبيعتي عاشقٌ للعزلة والاكتفاء ، ولكن كيف تعتزل وبجانبك هذا الرجل العجوز الرائع.

كان عم مسعد البلاسي وقبل أن يطعن في السن ويخرج إلى المعاش مديراً لمخازن شركة تعمل في بيع الأدوات الصحية يملكها واحد من الأجانب الذين كانوا يسيطرون على اقتصاد المدينة. رجل واعٍ

ذكي يعمل حساب المستقبل ، يسكن في بورسعيد وله بيت كبير في بورفؤاد اشتراه بثمن بخس وتركه للزمن ، رجل عجوز مستور .

انقلب حالنا رأساً على عقب ، أصبحنا مقيدين ، فقدنا حريتنا و انطلاقنا ، قال عرنوس وهو يطبخ الطعام يوم الجمعة ما الذي يجبركم على ذلك اتركوا لهم الشقة ، سآخذ البشروش معي في "اسبرنج" و شحاتة سيجد ألفاً من أصحابه الأوساخ ، ليس هناك مشكلة في رأيي، "اسبرنج" عمارة شهيرة في ميدان الجيزة تطل على النيل يسكن عرنوس على سطوحها في حجرة صغيرة جداً وبائسة ، تقع مباشرة تحت الإعلان الضخم ، الزجاجة العملاقة تحتها اسبرنج بالأحرف اللاتينية التي ترقص في النيون . يضربه شحاتة على يده فتسقط قطعة اللحم في المرق الساخن

– أريد أن أعرف هل استوى اللحم .

– هذه رابع قطعة ، سنأكلها نيئة ، هل استرحت؟

عرفت شحاتة عن طريق عرنوس كانا زميلي دراسة ، عرنوس يعمل في شركة الكهرباء و شحاتة يعمل في "المقاولون العرب" أبو شحاتة عالم أزهري صاحب مدارس الشيخ شحاتة هي أقرب إلى الكتاتيب ، عرفت فيما بعد أنهم سكان بيت طه الصغير قبل أن يصبح عمارة يافعة تطل على بيتنا في حارة البكري ، وأن الديوك الرومية التي كنت أعاكسها من سطوحنا هي ديوكهم وأنه يعرف عن شارعنا وأحوال بناته

ربما أكثر مني حتى بعد أن رحلوا عـن المنطقـة، ينطبـق عليـه المثـل الشهير"يخرج من ظهر العالم فاسد" .

في أول إجازة صيفية قلت لشحاتة لك كل فتيات الشارع مـا عدا صاحبة الشباك الخالي ، تفتحه عندما تراني فوق السـطوح أذاكـر وتغلقه بعد نزولي ، وظل هذا الاتفاق غير المكتوب مستمرا طوال العـام ،هي طالبة في معهد المعلمات تركب الأتوبيس وأركب أنـا الترولـلى باص، بين محطتي ومحطتها شارع عريض، أحياناً تتعمد التـأخير وأظـل أنتظر حتى ترحل ، لم أتكلم معها ولا كلمة واحدة ، عام كامل ولم أجرؤ حتى على مجرد الابتسام .عدت من الإجازة صعدت متلهفاً إلى السطوح وكان الشباك مفتوحاً لحظات وأغلق بشدة في وجهي ماذا حـدث يـا شحاتة ، يضحك شحاتة في خبث ويقول لا شئ ، حكى لي أخيراً قـال قلت لها لا أمل في البشروش إنه مجنون بجارته في بورسعيد ، تمالك نفسه قليلا ثم قال سحرتني هذه الفتاة ، حب حقيقي يا صديقي ، ذهبت لأبيها ووافق ، هي لم توافق ، فعلت المستحيل حتى كلمـتني قالـت لا أريـد الزواج منك ولا من صديقك ، اذهبا إلى الجحيم ، مرض شحاتة وكنـا نضحك عليه أنا وعرنوس ، لم نصدق أنه واقع في الحب فعلاً . حينمـا حضرت زفافه فيما بعد كانت زوجته صورة كاملة لفتاة إمبابـة، قـال أرجوك لا تخبرها بشيء ، دعها على عماها .

الهجرة . . هذا الكائن المتوحش الذي يعتصر القلب .
حملت شارعي معي في كل شارع غريب ، حملته بحجارته وناسه ، شريطاً سينمائياً وقف فجأة عند موضع ما ، عند لحظة ما ، زماناً متحجراً يتأبى على الاتصال ، فجوة أبدية بين الوهم والوهم ، بين الشـيء والظـل ، عرفت أنني سأعيش مشروخاً وإلى الأبد . تعرف أنها تملكني ، وأعـرف أنني عالق في حبلها ، وظل عقلي حاضراً ورافضاً .
قالت : تذكر أنت مدرس لغة إنجليزية قلت ذلك لزملائي ، أرجـوك لا تحرجني أمامهم .
عرفت ساعتها أي شقاء قادم تحت غمامتها ، وددت لو طعنـت قلـبي وألقيته للكلاب .
الهزيمة المركزية في حياتي ، منها تفرعت كل هزائمي .

أتصرف مع الناس بوصفهم نموذجاً مكرراً لأسـرتي الصـغيرة الرجال مثل أبي والنساء مثل أمي والفتيات مثل أخواتي ، بنيت خطـتي على هذه المعطيات الأولية ، توقعت نتائج باهرة لم أحققها أبداً ، وحينما أدركت كان الوقت قد فات .

قال كمونة أنت محسود يا رجل انظر حواليك كلنـــا فقـــدنا حلمنا الأول إلا أنت ،إذا لم يكن ذلك هو الانتصار فماذا يكون؟؟!

-أنت لا تعرف يا كمونة لقد حاولت السباحة على الرمـــل وحاولـــت المشي على الماء وحاربت حيث لا تنفع الحرب •

على سبيل التقديم المتأخر

وليس على سبيل الاعتذار

(الفرائس) ، الجزء الثاني من رباعية بورسعيد، (البشروش) هو الجـــزء الأول .. رصد لحياة جيل ربما الثالث أو الرابع في عمر هذه المدينة الفتية ، ليس التاريخ وإنما روح التاريخ ، والروح أصدق ، والنـــاس ليســـوا حقيقيين ولكنهم بلا شك من نسل هذه القطعة الغالية من أرض مصر .

ولماذا الفرائس؟ .. لأن معظم الأبطال و الأماكن و الأزمنة فريسة لخطـــأ تاريخي نتج عن اغتيال الأحلام ، وبالطبع فهي ليست المدينة و إنما صورة لها من عين محددة محكومة بظرفها الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي و الزمني و الخيالي .

والمدينة أكبر من أن تحتويها عين أو حتى مائة عين ، فهي مـــع صغرها ميدان فسيح لصراع مصر من أجل البقاء ، البوابة الشـــمالية – الميدان الفعلي لكل حروب مصر في العصر الحديث (العسكرية وغـــير العسكرية). شجعني حماس جيلي للجزء الأول (البشروش) ، ودهشـــة الجيل الذي لم يعش الأحداث ولم ير الأماكن .

والى اللقاء مع الجزء الثالث إن أحيانا الله .

السيد الخميسي

بورسعيد – ديسمبر ٢٠٠٠